

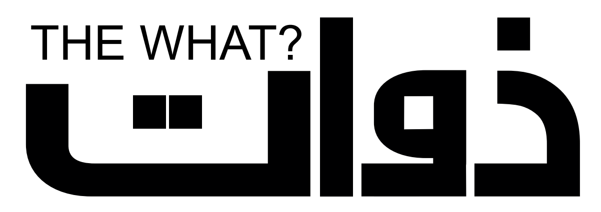
THE.WHAT?

ذوات

الإعلام الديني: بذور تسامح أم سموم كراهية؟!

مجلة . ثقافية . نصف شهرية
العدد ١٣. ٢٠١٥


مؤمنون
بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث



مجلة ثقافية إلكترونية نصف شهرية

تصدر عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»

العدد ١٣ - ٢٠١٥

ذوات THE.WHAT?

مجلة
ثقافية
إلكترونية
نصف شهرية

المشرف العام
د. أحمد فايز

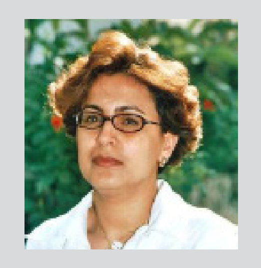
رئيسة التحرير
سعيدة شريف

تدقيق لغوي
د. عبد السلام شرماط

تنفيذ
رنا علاونه

المراسلات:
تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، أكدال،
قرب مسجد بدر
الرباط، المغرب
ص.ب: ١٠٥٦٩
تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤
فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧
رئيسة تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag@thewhatnews.net
سكرتير تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:
mag2@thewhatnews.net
www.mominoun.com





كلمة
هذا العدد

مع بداية الثورات العربية أو ما يعرف بـ «الربيع العربي» في نهاية عام ٢٠١١، تغيرت الكثير من الأشياء في الساحة السياسية والثقافية العربية، بل وحتى الإعلامية، حيث وصل عدد القنوات الفضائية العربية إلى نحو ألف و٣٠٠ قناة ما بين قناة عمومية وخاصة، واصطبغت العديد من القنوات (حوالي ١٠٠ قناة) بالطابع الديني، ولعب البعض منها أدوارا كبيرة في الصراعات الطائفية في المنطقة العربية، خاصة أن الدول العربية، تعد حسب دراسات حديثة، الأكثر استثمارا اقتصاديا وسياسيا وأيديولوجيا في مجال القنوات التلفزيونية.

تتخذ العديد من هذه القنوات الفضائية الدينية من القمرين العربيين: «النايل سات» و«عرب سات»، مجالا لتردداتها، وقد أظهرت الأرقام التي كشف عنها التقرير السنوي الأخير حول البث الفضائي العربي لعام ٢٠١٤ الذي يصدره «اتحاد إذاعات الدول العربية»، تنامياً في عدد القنوات الدينية، حيث احتلت المرتبة الرابعة من عموم القنوات الفضائية العربية المتخصصة بمجموع ٩٥ قناة، قبل القنوات الإخبارية التي لا يصل عددها إلا إلى نحو ٦٥ قناة، وبعد القنوات الغنائية المختصة ببث الكليبات وبرامج المنوعات والسهرات الغنائية التي احتلت المرتبة الثالثة بمجموع ١٢٤ قناة، وقنوات الدراما من أفلام ومسلسلات، والتي احتلت المرتبة الثانية بمجموع ١٥٢ قناة، فيما تحتل القنوات الرياضية المرتبة الأولى بمجموع ١٧٠ قناة.

فإذا كانت أغلب هذه القنوات الدينية (الإسلامية والمسيحية)، تُقدم نفسها بأنها تسعى لتقديم إعلام هادف وتنويري، وتنموي يسهم في ترسيخ القيم والمفاهيم الدينية الأصيلة، وينطلق من حاجات المجتمع وثوابته، من خلال استثمار تقنيات الإعلام والإعلان والاتصال، وفق منهج علمي وعملي يستقطب

اهتمام شرائح المجتمع بما يكفل تأثيراً يحقق التغيير المنشود، وأنها أيضاً وسيلة مساعدة للمؤمن، مهما كانت عقيدته، كي يحافظ على انتمائه، ويعزز انفتاحه على الآخر المغاير، ويمد له يد المساعدة بوصفه إنساناً، بغض النظر عن الانتماءات الدينية والطائفية الضيقة، فإنها سرعان ما تُظهر في خطاباتها المتنوعة، من ذوي الاختصاص وغير الاختصاص، نوايا رهيبة، تكشف عن وجه مظلم، وعن أفكار مرعبة، تسعى لاستمالة عدد كبير من المشاهدين، موظفة الدين في سبيل خدمة أهدافها السياسية والأيديولوجية.

ولمقاربة ملف الإعلام الديني العربي، ومحاولة الإجابة عن العديد من الأسئلة المحيطة به، من قبيل: ما الإعلام الديني؟ وكيف ظهر؟ وهل يمكن عزله عن ثورة الاتصال الحديثة؟ وما حقيقته؟ ومن يقف وراءه ويوجهه ويموله؟ وهل غاياته دينية تقف عند التبشير والدعوة، أم تتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد وأعمق؟ وما علاقته بالفضاء العام؟ وهل هو صانع سلام وتعايش، أم هو صانع فتنة واقتتال ديني وتناحر طائفي؟ وما مدى مصداقيته وجدواه؟، جاء هذا الملف المعنون بـ «الإعلام الديني العربي: بذور تسامح أم سموم كراهية؟!» في العدد الثالث عشر من مجلة «ذوات» الثقافية الإلكترونية نصف الشهرية، والصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، الذي أعده الزميل الإعلامي والكاتب التونسي عيسى جابلي.

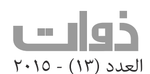
شارك في الملف، كل من الباحث التونسي المتخصص في الحضارة والفكر الإسلاميين، محمد سويلمي، بدراسة بعنوان «الإعلام الديني العربي: الخلفيات والأهداف»، والكاتب والباحث المصري في الإعلام الجديد والثقافة الرقمية، محمد سيد ريان، بمقال بعنوان «الإعلام الديني العربي بين الدعوة والتبشير وبث الفتن الطائفية»، والباحث والأكاديمي الجزائري، محمد بغداد، بمقال بعنوان «القنوات الدينية ومعابر «الانتحار» الفضائية»، والباحث المغربي في علم النفس السياسي، سعيد بحير، بمقال بعنوان «الشروط النفسية والتربوية للإعلام الديني في العالم العربي الإسلامي»، إضافة إلى حوار مع الخبير الإعلامي المغربي يحيى اليحياوي، أقر فيه بأن معظم الفضائيات العربية الدينية تخدم أجندات سياسية، وأن هذا النوع من الإعلام يسيطر عليه البعد المذهبي، مؤكدا أن السبيل لإنجاح الإعلام الديني هو العمل على محورته حول القيم المشتركة والأخلاق السامية، كي يدفع نحو المحبة والتعايش والسلام.

ويتضمن باب «رأي ذوات» مقالاً للشاعرة والأكاديمية الأردنية مها العتوم بعنوان «عم تكتبين؟»، ومقالاً ثانيا للباحث والمترجم المغربي ناصر فطواكي بعنوان «بيارن ملكيفك: التزام وتسامح»، والثالث للباحث المصري في الفلسفة والفكر العربي المعاصر، غيضان السيد علي بعنوان «شائكية العلاقة بين المثقف والسلطة»؛ ويشتمل باب «ثقافة وفنون» على مقالين: الأول للباحث والكاتب السوري نبيل علي صالح، بعنوان «إشكالية سؤال النهضة: لماذا تأخر العرب؟ وكيف يتقدمون؟»، والثاني للباحث الفني المغربي المتخصص في مجال الصورة والسينما، عز الدين الوافي عن «البعد الديني في عوالم انغمار بيرغمان السينمائية».

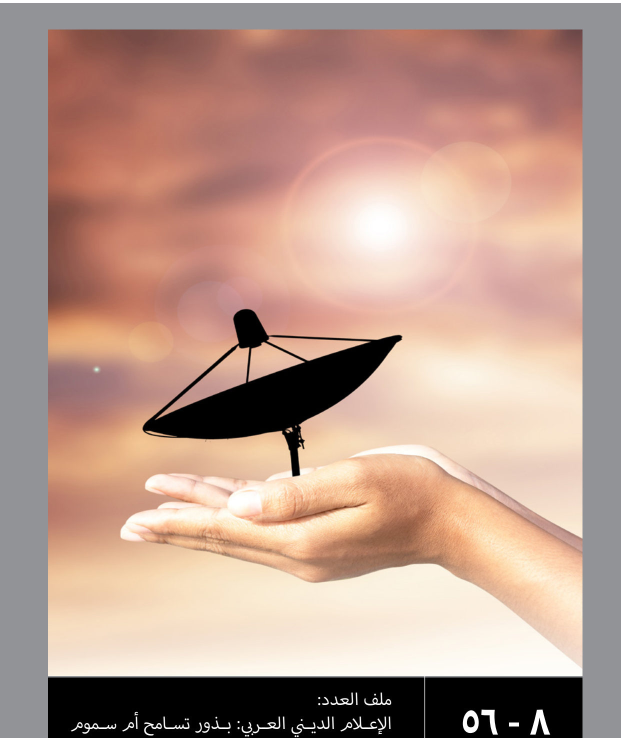
ويقدم باب «حوار ذوات» لقاء مع الروائية السورية لينا هويان، التي بلغت روايتها «ألماس ونساء» القائمة القصيرة في جائزة البوكر للرواية العربية في دورتها الأخيرة، أجراه الكاتب والناقد المغربي إبراهيم الحجري، تحدثت فيه لينا هويا، عن الرواية كجنس أدبي، وعن الأنوثة وقضية المرأة التي تنتصر لها في كتاباتها، وعن استثمارها للتاريخ والذاكرة في أعمالها، وعن الجوائز الأدبية العربية. ويقدم الشاعر والباحث التربوي المغربي أحمد العمراوي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته عن «العادة وتغيير مسار الشخص» في باب «تربية وتعليم».

أما باب «سؤال ذوات»، فتقربنا فيه الزميلة الإعلامية الأردنية منى شكري من آراء الباحثين العرب حول كيفية الارتقاء بإنتاجنا المعرفي، وذلك من خلال استقراء آراء ستة باحثين عرب؛ ويقدم الباحث الباحث المغربي محمد بوشيخي قراءة في كتاب «من الصحوة إلى اليقظة: استراتيجية الإدراك للحراك» للمفكر القطري، الدكتور جاسم سلطان، وذلك في باب «كتب»، والذي يتضمن أيضاً تقديماً لبعض الإصدارات الجديدة لمؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، إضافة إلى لغة الأرقام التي تقدم أرقاما جديدة لعدد الجياع في العالم، والذي شهد تراجعا نسبيا في السنوات الأخيرة.

سعيدة شريف



في الداخل ...



ملف العدد:

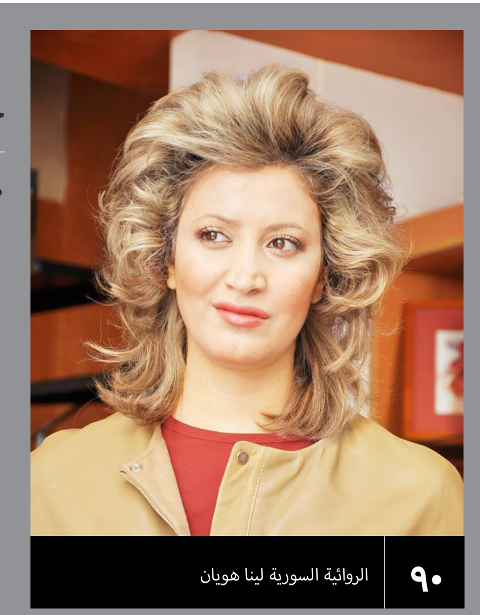
الإعلام الديني العربي: بذور تسامح أم سموم كراهية؟!



ثقافة وفنون:

THE WHAT? ذوات

حوار ذوات:



٩٠ الروائية السورية لينا هويان

١٠٠ ضرورة تشكيل أرضية خصبة للتوعية الفكرية

سؤال ذوات:



١٠٨ فكّر؛ رابح/رابح

تربية وتعليم:

في كل عدد:





الإعلام الديني العربي: بذور تسامح أم سموم كراهية؟!



إعداد: عيسى جابلي
باحث وإعلامي تونسي

الإعلام الديني العربي: حَمَل وديع في يده بندقية!

أمام تزايد عدد القنوات الفضائية الدينية وتنامي عدد المتابعين لها، صار بالإمكان الحديث عن إعلام ديني (إسلامي ومسيحي) له حضوره في الواقع العربي وله تأثيراته أيضاً. ويفترض أن يكون هذا الإعلام وسيلة مساعدة للمؤمن مهما كانت عقيدته كي يحافظ على انتمائه، ويعزز انفتاحه على الآخر المغاير، ويمد له يد المساعدة بوصفه إنساناً، بغض النظر عن الانتماءات الدينية والطائفية الضيقة، وذاك ما تعلنه أغلب القنوات الدينية؛ غير أن إصغاء ناقداً لهذا الخطاب سرعان ما يكشف نواياه الخفية، فتتضح معالم كواليسه، فإذا القنوات الدينية في أغلبها، إن لم نقل كلها، واجهات لكواليس مظلمة تتحكم فيها رؤوس أموال متوحشة، وجمعيات ومنظمات لها أهداف دينية في الظاهر، ولكنها في الحقيقة سياسية ثقافية اقتصادية، بل أهداف سلطوية تحاول افتكاك المجال العام والسيطرة عليه، عبر واجهات إعلامية، تعتمد خطابات محكمة التوجيه والدراسة لبلوغ أهدافها ومراميها.

صَار الإعلام الديني العربي مشغلاً حقيقياً من شواغل عالمنا المعاصر، يتطلب أكثر من وقفة، لأنه يطرح من الإشكاليات والأسئلة ما يتجاوز حيزاً بحثياً محدوداً. ذلك أن الانفجار الإعلامي الديني قد حقق طفرة في إنتاج البرامج المتنوعة وصنع مواد إعلامية تستمد من الديني المقدس موضوعاً لها، وهو إلى ذلك هدفها المعلن وغايتها الصريحة، فكل القنوات الفضائية الدينية تعمل على التواصل مع الآخر والتأثير فيه بكل الوسائل المتاحة، إما لتثبيته على الدين/المذهب الذي تتبناه، أو لتصحيح بعض مفاهيمه عنه، أو لاستقطابه. ومن ثمّ تكون الخطورة، لأن دائرة المقدس حقل مزروع بالألغام يهدد بالانفجار في كل لحظة، والخطاب الذي يتخذ من المقدس سلاحاً أخطر خطاب على الإطلاق، لما له من سطوة على النفوس وسيطرة على العقول وقدرة على التخدير والتوجيه.

"Power of God in Islam & Christianity"







إن الصورة اليوم، هي المؤثر الأول في حياتنا المعاصرة، حتى غدا الإعلام سلطة أولى: يصنع القرارات ويشكل الجماعات ويصنع الرأي العام ويوجهه، وهي سلطة يعيها القائمون على الإعلام الديني جيداً، فعملوا على استغلالها وتوظيفها. وإذا كان المعلن دائماً هو شعارات «التعريف بالدين» و»إدخال الجنة» و»تحقيق الخلاص»، فإن الحقيقة أبعد من ذلك بكثير. ورغم أن مقدمي أغلب البرامج الدينية يرددون دوما مقولة التسامح والانفتاح على الآخر وعدم معاداته، فإن الحقيقة غير ذلك، إن هي إلاّ مجرد شعارات تُتوسل للإغراء والتخدير قصد السيطرة على المتلقي. تكفي نظرة بسيطة على ما تبثه هذه القنوات من برامج، حتى تكتشف أن هذه العبارات هي مجرد شعارات، وأن ما خفي أعظم بكثير مما أعلن. فلكل قناة فضائية خلفياتها، ولها أهدافها وغاياتها التي تتجاوز الديني إلى السياسي والثقافي والعرق والاقتصادي...

> رغم أن مقدمي أغلب البرامج الدينية يرددون دوما مقولة التسامح والانفتاح على الآخر وعدم معاداته، فإن الحقيقة غير ذلك

فليس خافياً أن قنوات دينية كثيرة هي واجهات لأحزاب سياسية غايتها السلطة والنفوذ، وقد رأينا ذلك جلياً مع قناة «الناس» الفضائية التي كشفت بعد تخلي الرئيس المصري السابق حسني مبارك عن الحكم عن إخوانيتها، ووقوفها مع حزب سياسي ومهاجمة أحزاب أخرى لا تشاطرها الانتماء، فاحتفلت في العلن بصعود محمد مرسي إلى سدة الحكم، وتخندقت في ما بعد، وراء ما عرف بـ»ميدان رابعة» لنصرة تيار الإخوان المسلمين.

ثم إن ما تحظى به هذه القنوات الدينية من متابعة ونسب مشاهدة عالية، جعلها أيضاً واجهة للتسويق والإشهار، وصارت تخصص نصيباً وافراً من توقيت البث للإشهار، لما يجنيه من عائدات طائلة، وذلك يعكس تفكيراً ضمنياً من المستشهِر في

استغلال الصبغة الدينية للقناة، كي يكون منتوجه محل «ثقة»، فيزيد من الإقبال عليه، بما أن باث الإشهار محاط بهالة الديني والمقدس والأخلاق والصدق.

غير أن المأزق الأكبر الذي يقع فيه الإعلام الديني هو مدى توفيقه بين نشر دينه والتعريف به دون المساس بمعتقدات الآخرين. فإذا كانت الأديان، التي من المفترض أن تكون الخلفية المعرفية لهذه القنوات الدينية، تدعو إلى احترام الآخر، وتؤكد على مبدأ التعايش بوصفه أساساً لاستمرارية الإنسان والكون، فإن الإعلام الديني غالباً ما يتحول إلى بوق يعتدي على الآخرين في معتقداتهم وأشخاصهم وأفكارهم وتاريخهم وثقافاتهم. وذلك ما يتم تحت يافطة «الرد على الشبهات» أو «الرد على المتآمرين على الدين»، ويصير الاعتداء على الآخر مطية تسمو بها الذات وتعلو.

ولنتأمل خارطة الصراعات في عالمنا العربي: إنها صورة تكاد تكون حرفية لما يحصل من صراع للأفكار والمعتقدات على القنوات الدينية، والعكس صحيح. يكفي فقط، أن نرى الاقتتال الطائفي بين السنة والشيعة في العراق ولبنان وسوريا؛ أو أن نرى تفجير الكنائس وقتل الأقباط في مصر؛ أو قتل المسيحيين في أماكن أخرى من العالم، يكفي ذلك كي نتأكد من سطوة هذا النوع من الإعلام على الفضاء العام، حتى صار مرجعاً يتحكم في الآراء ويوجهها ويملي عليها قراراتها وأفعالها، ويحول خطابه إلى اقتتال دموي ينفجر في كل مرة في مكان ما. وبغض النظر عن أسبقية التأثير؛ أي عما إذا كان الواقع العربي أنتج خطاباً دينياً طائفياً قائماً على التمييز، فانعكس هذا الخطاب على الواقع قتلاً وتذبيحاً، أو العكس، فإن ما لا يمكن التشكيك فيه، أن علاقة جدلية تحكم ذلك بصرامة: خطاب تحريضي يعتمد الشحن والكراهية يتحول إلى بندقية وسكين تجز الرؤوس في الواقع، والعكس صحيح.

> إن المأزق الأكبر الذي يقع فيه الإعلام الديني هو مدى توفيقه بين نشر دينه والتعريف به دون المساس بمعتقدات الآخرين

لقد انقلب الخطاب الديني في الإعلام الديني العربي إلى محرض على الفتنة والاقتتال، وأصبح صانعاً لبؤر التوتر والصراعات في كل مكان، وهذا انقلاب على أهداف الدين في المطلق. وإذا كان الهدف الأسمى من الدين هو مد جسور التواصل مع الآخر وصناعة عالم أكثر أمناً، فقد صار أول مدمر لأواصر الحياة الإنسانية من خلال خطاب يعمل بكل قواه على شحن النفوس بالكراهية، وسرعان ما يتحول ذلك إلى حقد يصطاد الآخر، ويطلب تصفيته.

فالإعلام الديني يصدر عن بداهة يعمل على ترسيخها في النفوس، ويوظف لإقناع المتلقي بها كل ما أوتي من قوة، هي أنه مالك الحقيقة الحصري بلا منازع، وأن كل ما سواه على ظلال بيّن. وهذا ما يدفعنا مباشرة إلى استنتاج زيف شعاراته وتنافيها مع الدين ذاته، بل تناقضها مع أسس الوجود المشترك الذي يقتضي التنوع والتعدد في فضاء للتعايش لا فضاء للتناحر والتطاحن.

وقد وظف هذا النوع من الإعلام «نجوما» لهم «معجبوهم ومعجباتهم» ممن يحبونهم «في الله»، ويتبنون خطاباتهم، ويتأثرون بها ويدافعون عنها ويعيشون بما يسطرون، بل أكثر من ذلك: يسعون لتقليدهم في اللباس والحركة وطريقة الكلام.. غير أن الأخطر من كل هذا، أن هؤلاء «النجوم» من مقدمي البرامج

الدينية على القنوات الإعلامية العربية، سرعان ما يتحولون إلى وسيط بين المشاهد وربه، فبعقولهم يفهم القرآن والكتاب المقدس، وبعلومهم يشرح الحديث، ويتبيّن صحيحه من موضوعه، وعلى طريقتهم في الصلاة تكون الصلاة، ولنقس على ذلك نواح شتى من الحياة.

ثم إن الإعلام الديني يعمل على صرف الأنظار عن المشاكل الحقيقة للإنسان، ويحول الأسئلة المصيرية إلى مسائل ثانوية، هي أبعد ما تكون عن الواقع، فإذا كان هم العربي اليوم هو تحقيق نهضة شاملة واللحاق بركب الأمم المتقدمة، فإن السؤال مع الإعلام الديني يصبح: «هل زنت عائشة؟»، «هل الحجاب فريضة؟»، «هل محمد رسول؟»، «هل الكتاب المقدس محرف؟» «.. إلخ. ولنقس على هذا لغواً كثيراً يبثه الإعلام الديني العربي، ويبعد الإنسان عن واقعه. والمتتبع لأغلب ما تبثه هذه القنوات، يلاحظ ببساطة أنها ترحل به عن واقعه حالما يستسلم لها: إما أن ترتمي به في ماض سحيق لا علاقة له بواقعه، فيجد نفسه في خضم صراعات انقضت وتقادمت، ولم تعد لها مشروعية، ولم يعد مفيدا من كان الظالم فيها؛ وإما أن ترحل به إلى عالم الآخرة تقلبه بين الجنة والنار، بدءا بعذاب القبر إلى يوم الحشر إلى أهوال القيامة.. وبين الحالين يعيش المشاهد مخدرا، فيغترب عن واقعه، ويؤجل أسئلة وجوده الحارقة إلى ما لا نهاية.

وهذا ما يطرح إشكالية علاقة الإعلام الديني العربي بواقعه؛ إذ يبدو في أغلب الأحيان أبعد ما يكون عن واقع المسلم أو المسيحي، السني أو الشيعي. فإذا كان المشغل الرئيس في ظل ما نعيشه من صراعات هو: كيف نعيش معا؟، فإن هذا الإعلام، على العكس من ذلك تماماً، يحرض على الكراهية والبغضاء والتناحر، يشحن السني ضد الشيعي، ويحرض المسلم على المسيحي، والعكس صحيح أيضاً، حتى تحول واقعنا إلى غابة: إما أننا هدف لآخر قد ينقض علينا، أو أننا نترصد آخر يكون هدفاً لمخالبنا. والصورة التي تنطبق على هذا الإعلام دائما هي خطاب الحمل الوديع الداعي إلى التسامح والمحبة والتعاون بلسان فصيح، سرعان ما يمتشق بندقية تطلب تصفية الرؤوس وضرب العناق. وأين هذا من غايات الأديان ومقاصدها؟

> يعمل الإعلام الديني على صرف الأنظار عن المشاكل الحقيقة للإنسان، ويحول الأسئلة المصيرية إلى مسائل ثانوية، هي أبعد ما تكون عن الواقع

من هذه الإشكاليات انبثق ملفنا حول الإعلام الديني العربي، وما يطرحه من مفارقات ومشاكل. وعلى هذا الأساس، سلطنا الضوء عليه وجعلناه موضوع سؤال ومساءلة؛ فكانت الأسئلة تباعا: ما الإعلام الديني؟ كيف نشأ؟ هل يمكن عزله عن ثورة الاتصال الحديثة؟ ما حقيقته؟ من يقف وراءه ويوجهه ويموله؟ ثم؛ ما أهدافه ومقاصده؟ هل إن غاياته دينية تقف عند التبشير والدعوة، أم تتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد وأعمق؟ ما علاقته بالفضاء العام؟ هل هو عنصر منه يثريه، أم هو مسكون بهاجس افتكاكه والسيطرة عليه واحتلاله؟ هل إن الإعلام الديني العربي صانع سلام وتعايش أم هو صانع فتنة واقتتال ديني وتناحر طائفي؟ وما مدى التصاقه بواقع الإنسان المعاصر وهمومه؟ هل يسعى لتقديم أجوبة لأسئلتنا الحارقة الراهنة، أم هو شكل من أشكال التخدير والاغتراب عن الحياة؟ ثم؛ أي جدوى لهذا النوع من الإعلام؟ كيف يمكن تحويله من أداة لبث الفتنة إلى يد ممدودة للتسامح؟

للخوض في هذه الإشكاليات بالنقد والتحليل، تضمن الملف أربع ورقات بحثية تركز كل منها على جانب من جوانب الموضوع: في الورقة الأولى ينظر الباحث التونسي محمد السويلمي في خلفيات الإعلام الديني العربي وأهدافه متكئا على ثلاثة نماذج، مقسما أهم الخلفيات إلى سياسية اجتماعية وأخرى ثقافية تاريخية، ليبين أن وراء هذا النوع من الإعلام خلفيات عميقة، قد لا تظهر إلا للناقد المتفحص؛ ويكشف الأستاذ السويلمي عن أهداف الإعلام الديني العربي، فيوضح أن أهمها الزعامة المادية والروحية واصطناع الحقيقة، لينتهي إلى أنّ المشتغلين «في هذه القنوات من مسيّرين وتقنيين ودعاة وممولين هم جزء من شبكة سياسية واجتماعية ومالية تحرّكها استراتيجيّات متعالقة لأنظمة سياسية ودوائر نفوذ تطمح إلى افتكاك موقع فعّال».

إن الصورة التي تنطبق على هذا الإعلام دائما هي خطاب الحمل الوديع الداعي إلى التسامح والمحبة والتعاون

ويركّز الباحث المصري محمد سيد ريان في ورقته على تحليل عينة من شعارات الإعلام الديني العربي، فيبين أن بين المعلن والمستتر تختفي نوايا ومقاصد عميقة تتجاوز ما هو ديني إلى ما هو طائفي وسياسي، خصوصا إذا مرت مواده إلى مواقع التواصل الاجتماعي، وانتشرت ضمن شبكة أخرى أوسع من أن نحيط بها.

في ورقته المعنونة بـ«القنوات الدينية ومعابر الانتحار الفضائية»، يعتبر الباحث الجزائري محمد بغداد، أن الإعلام الديني يستغل الواقع الذي يعيشه المتلقي من خوف واضطراب اقتصادي وقلق اجتماعي، فيسوق لخطاب تخويفي يرتكز على مشاهد الآخرة وعذاب جهنم، كي يقع هذا المتلقي فريسة الاستسلام لما يمليه عليه الإعلام الديني، ويبين أن تخندق بعض قنوات الإعلام الديني وراء الطائفية يجعلها في صدام دائم مع مذاهب وطوائف وجماعات مغايرة. ويرى أن الإعلام الديني الرسمي غارق في «تخبط» عجزه وجموده بلا نهاية، والحال أن عليه أن يكون معدلا لكفة الإعلام الديني الخاص، ويدعو الباحث النخب إلى أن تواجه هذا النوع من الإعلام في «الساحة الإعلامية الفضائية».

وفي الورقة الرابعة، يتحدث الباحث المغربي المتخصص في علم النفس السياسي وأستاذ الصحة النفسية والعلاج السيكولوجي، سعيد بحير، عن «الشروط النفسية والتربوية للإعلام الديني في العالم العربي الإسلامي»، وعن ماهية الإعلام الديني في العالم العربي الإسلامي، ووظائفه الأساسية، وعن الوسائل العملية لتطوير أدواته وتجديد برامجه لتكون مفيدة لجميع شرائح المجتمع.

ويتضمن الملف أيضاً، حواراً معمقاً مع الخبير الإعلامي المغربي يحي اليحياوي، والذي حلل فيه ظاهرة الإعلام الديني العربي، وناقش الأسئلة التي يطرحها هذا النوع المخصوص من الإعلام.



بقلم : محمد السويلمي

باحث تونسي متخصص في
الحضارة والفكر الإسلاميين





الإعلام الديني العربي: الخلفيات والأهداف

إن العولمة خدمت «الموجة الدينية»، وأتاحت للمؤسسة الدينية أن تتكيف مع السّوق الثّقافيّة النّاشئة، وتتواصل مع شتّى الجماعات والسّياقات، وبهذا تعاظم حضورها وتدعّم سلطانها، وأعادت تسييق وجودها في النّظام المؤسّسي بكلّيته مكثّفة دورها العمليّ والرّمزي في تمتين الانتظام الاجتماعي، وصوغ المصائر الجمعية.

والمجتمعات العربية كغيرها من المجتمعات، لم تكن بمنأى عن هذه التّحوّلات الثقافية والتقنية، حيث نشأ بها إعلام ديني مستحدَث في أدواته وأساليبه، ولكنّه على صلة مكينة بموروث سياسي ومعرفي وذاكرة مصطنَعة، تحددت معالمها منذ أمد سحيق. غير أنّ هذا الإعلام الديني العربي تضخم في كمّ قنواته، ونوع في مادّته الإعلاميّة، وازدادت تقاطعاته مع رهانات المعيش السياسي والاجتماعي وانتظاراته بشكل متسارع، بسبب تحولات المنطقة العربية داخلياً، وفي علائقها الإقليميّة والدولية، وهو ما أثار إشكالات جمّة عن حقيقة هذا الإعلام الديني العربي في خلفيّاته الموجهة ومراميه المعلنة أو المضمَرة.

يتخطى الخطاب الديني أن يكون مجرد قناة إبلاغية لتواصل المؤسسة الدينية مع جموع المؤمنين. إنه فضاء لإنتاج المعنى والسلطة معاً، بفضل ما يمارسه من ترسيب[١] اعتقادي وطقسي يفضي إلى نمذجة ينصهر فيها المتعدد والمختلف في علامات مرجعية مؤسسية. كل هذا يمنح الخطاب الديني والمواقع المنتجة له قوة توجيه وإرغام مرفودة بسلطة رمزية تعبر التواريخ والفضاءات والجماعات، وتتغرز

١- Berger, Peter & Luckmann, Thomas, The Social construction of reality, a treatise in the sociology of knowledge, Penguin Books, England, ١٩٦٦, p. ٨٥

في صميم النسيج المجتمعي، وهو ما «يعزز علاقات السلطة القائمة ويشرعنها»[٢]. وحتّى تتكيف المؤسسة الدينية مع الديناميات التقنية والاجتماعية والاقتصادية المتسارعة، عليها أن تجدد استراتيجيات خطابها وأدواته، كي تنتشر في تفاصيل الشّبكة المجتمعيّة، وتضمن تشاركيّة النسق الثقافي وتقمصه بكل انسيابية وطوعية بين أفراده المنخرطين فيه. ولا يتأتى هذا الاندماج والتكيف إلا بإعادة إنتاج الخطاب – وبالضرورة إعادة إنتاج السلطة – في شبكة تواصلية ناجعة ليس الإعلام الفضائي إلاّ إحدى طرائقها بوصفه مرتكزاً أساساً في الفضاء المعولَم. وليس بخافٍ أنّ «العولمة خدمت الموجة الدينية»[٣]، وأتاحت للمؤسسة الدينية أن تتكيف مع السّوق الثّقافيّة النّاشئة، وتتواصل مع شتّى الجماعات والسّياقات. وبهذا تعاظم حضورها وتدعّم سلطانها وأعادت تسييق وجودها في النّظام المؤسّسي بكلّيته مكثّفة دورها العمليّ والرّمزي في تمتين الانتظام الاجتماعي، وصوغ المصائر الجمعية.

الخطاب الديني فضاء لإنتاج المعنى والسلطة معاً، بفضل ما يمارسه من ترسيب اعتقادي وطقسي

ولم تكن المجتمعات العربية بمنأى عن هذه التّحوّلات الثقافية والتقنية، ونشأ إعلام ديني مستحدَث في أدواته وأساليبه، ولكنّه على صلة مكينة بموروث سياسي ومعرفي وذاكرة مصطنَعة تحددت معالمها منذ أمد سحيق. غير أنّ هذا الإعلام الديني العربي تضخم في كمّ قنواته، ونوع في مادّته الإعلاميّة، وازدادت تقاطعاته مع رهانات المعيش السياسي والاجتماعي وانتظاراته بشكل متسارع، بسبب تحولات المنطقة العربية داخلياً، وفي علائقها الإقليميّة والدولية؛ وهو ما أثار إشكالات جمّة عن حقيقة هذا الإعلام الديني العربي في خلفيّاته الموجهة ومراميه المعلنة أو المضمَرة. وسنسعى للاشتغال على هذا الإشكال اعتماداً على ثلاثة نماذج اخترناها عن قصدية من شبكة تلفزيونية هائلة: قناة «الناس»[٤] ذات التوجه «السلفي» السني؛ وقناة «فدك»[٥] الشيعية؛ وقناة «الحياة»[٦] ذات التوجه المسيحي، باحثين في الخلفيّات والأهداف.

الخلفيّات:

إذا كانت المؤسسة الدينية تتسم بصلابة المعتقدات والممارسات ومتانة البناء التراتبي الذي تزدرعه في الجسد الجمعيّ لأتباعها، فإنّ لها من المرونة والتّمويه ما يجعلها نافذة على الدّوام. وهذا ما يبرّر الحضور العميق للنخب الدينية بوصفها نخباً رمزيّة (Symbolic Elites) تدمج «كلّ المؤسسات في عالم ذي مغزى»[٧] على غرار الفقهاء والدّعاة واختصاصيي المعرفة الدينية في الفضاءات الإعلامية العربية، وهم بحكم المواقع التي يشغلونها ليسوا أفرادا مستقلين عن مجموع النظام المؤسسي للمجتمع، بل هم تحويلات رمزية مكثّفة للفاعلين الاجتماعيين. ويكفي أن نتملّى دُعاة قناة «النّاس» في سيرهم وارتباطاتهم السياسية والمالية والعلمية، حتّى نستوضح هذا التورط الأيديولوجي[٨]، ونظير ذلك قناة «الحياة»[٩] وخلفياتها التبشيرية. وهذا يدفعنا

٢- Fairclough, Norman, language and Power, Longman group, UK limited, U. k, ١٩٨٩, p.٤

٣- رواء أليفيه، الجهل المقدّس: زمن دين بلا ثقافة، ترجمة: صالح الأشقر، دار السّاقي، بيروت، ط١، ٢٠١٢، ص ٢٤٧

٤- قناة الناس: http://www.Alnas.tv.com

٥- قناة فدك: http://www.Fadak.tv.com

٦- قناة الحياة: http://www.Hayat.tv.com

٧- Berger, Peter & Luckmann, Thomas, The social construction…op.cit, p.٩٣

٨- ويكيبيديا، قناة الناس، فلها ارتباطات عميقة بدوائر رجال المال والدين في السعودية.

٩- ويكيبيديا، قناة الحياة، وخاصّة علاقاتها بمؤسّسات تبشيريّة معروفة.



إلى استقراء المخبوء الذي يوجه هذه الفضائيات الدينية من خلال المادة الإعلامية الّتي تقدمها إلى متابعيها وتسوّقها في صورة بضاعة مقدسة إلى الجموع المؤمنة.

الخلفيّات السّياسيّة والاجتماعيّة:

قد تتوزع السلطة في حقول ومجالات متباينة، لكنها تتكامل في خلق حس مشترك (Sens commun) يوحد الذوات والأشياء، وينمّط المعاني والأفعال في حركة تبادلية للفاعلين في حقل ما[١٠]، وهو عينه شأن الإعلام الديني العربي الذي يستهدف الجماهير المؤمنة، تحرّكه خلفيّات سياسية مخصوصة بتلك السياقات المجتمعية في هواجسها واحتياجاتها. وهذا يثبت أنّ «وسائل الإعلام الجديدة أداة فعّالة لتشكيل الاستحقاقات السياسية الكبرى»[١١]. وتحمل المواضيع المثارة في قناة «النّاس» بعد الإطاحة بنظام حسني مبارك، إشارات صريحة إلى التوظيف السياسي لهذه الفضائيات، خاصة ما اتصل بالانتخابات الرئاسية المصرية ودعم مرشح جماعة الإخوان المسلمين، أو المعونات الأمريكيّة لمصر أو أحداث «ماسبيرو»[١٢]، وهي وإن بدت مادّة إعلامية سياسية، فقد طُعّمت بحجاج ديني نصي وغير نصي مستمد من الذاكرة التاريخية الدينية بوصفها منعشات روحية ومعرفية تخلق تفاكراً دينيّاً ينشدّ بمقتضاه الراهن إلى الأصول المتخيلة، ويكون التاريخ الديني بذلك أداة تبرير وشرعنة منخرطة في استحقاقات سياسية محضة.

الإعلام الديني العربي يستهدف الجماهير المؤمنة، تحرّكه خلفيّات سياسية مخصوصة بتلك السياقات المجتمعية في هواجسها واحتياجاتها

وفي قناة «الحياة» المسيحيّة أثير موضوعان سياسيّان: الأوّل يتعلّق بتنظيم «داعش»، والثّاني موصول بالأقلّيات المسيحيّة في منطقة الشّرق الأوسط. وقد عرض الموضوعان ضمن سياقين دينيين - معرفيّين: الأول هو التطرف الديني بوصفه «مروقاً عن التسامح الديني»؛ والثّاني هو الحرية الدينية و«أهل الكتاب» في منظور الإسلام والمسلمين. وقد لا يكمن الخطر في الموضوعات بأعيانها، وإنّما في كيفيات الاستقراء والتّحليل التي تستنفر الذاكرة والمرجعيات النصية في إثارة مشاعر إيمانية وتطويعها في زرع مواقف وتمثّلات ذات مردوديّة سياسيّة عالية في توجيه الرّأي العام.

الخلفيّات الثّقافيّة والتّاريخيّة:

قد لا نبالغ، إن قلنا إن الذاكرات والتواريخ والسير والأرصدة الثقافية للجماعات هي اليد الطّولى للمؤسسة الدينية والمعين الرمزي الحي للإعلام الدّيني بدعاته ومختصيه الذين يعلمون «تاريخ الإيقاعات»[١٣] (Histoy Rhythms) الذي تتحرّك وفقها الجموع المؤمنة. وتحفل المادّة الإعلاميّة الدّينيّة بموضوعات تستمدّ حيويّتها من انغراسها في التّاريخ – الحقيقيّ أو الأسطوريّ -، بما يخلق التّواصل بين السّالف

١٠- شوفالييه، ستيفان وشوفري، كريستيان، معجم بورديو، ترجمة: الزّهرة ابراهيم، السرّكة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع(دمشق ودار الجزائر (الجزائر)، ط١، ٢٠١٣، ص ١٤٢

١١- Ghffari-Farhanzi Setoreh, les médias dans le monde musulman, communication et langages, N° ٤ ,١٢٦ème trimestre, ٢٠٠٠, p١٧

١٢- يمكن الاطّلاع على ذلك في موقع Youtube في شكل حلقات مصوّرة.

١٣- Lefebvre, Henri, Rhythm analysis, space, time and everyday life, translated by: Elder, Stuart, and Moore, Gerald, Continuum, (London – New York), ٢٠٠٤, p.٥١

والرّاهـن، وتنفتـح الوسـائط بـين الواقـع المعيـش والخلفيـات الثقافيـة والتاريخيـة، وتنـدرج بذلـك جمـوع المؤمنـين في الأصـول المتخيّلـة، ويكـون الإعـلام الدّيـني «شـهادة عـلى رتـق مؤقّـت للأصـل»[١٤]، وتعكـس العيّنـات الإعلاميـة الـيّ تقدمهـا هـذه الفضائيّات المنابـع الثقافيـة/التاريخيـة الـتي تشـغل الإعـلام الديـني والمتلفـز وتُشَـغّل عـبره، فقنـاة «فـدك» تسـتعيد كلّ الخطابـات المسـهمة في اصطنـاع الـصراع المذهـبي السـياسي بـين الشـيعة والسـنة، وتفعّلـه وفـق منظـور جديـد يوسـم بـ»العلميـة والموضوعيّـة» في اسـتنطاق المأثـورات النصيـة والوقائـع التاريخيـة، خاصـة تلـك المتعلقـة بالخليفتـين أبي بكـر وعمـر، اللذيـن يحـوزان هالـة مـن الإجـلال والقداسـة في المتخيّـل السـنّي. فقـد عـرض برنامـج «كيـف زُيِّـف الإسـلام؟» للشّـيخ يـاسر الحبيـب عـلى امتـداد حلقـات «كيفيّـة نشـوء النّسـخة المزيّفـة مـن الإسـلام»[١٥]، ويسـوق لذلـك حشـداً مـن القرائـن والبراهـين الـتي اختـيرت بعنايـة، واسـتنطقت وفـق آليـات متموقعـة أيديولوجيّـاً، تنطلـق مـن تاريـخ مشـحون بالمماحكات ومنغمـس في حـرب الشرعيـات والشرعيـات المضادّة الـتي ارتبطـت بخلافـة النـبيّ محمّـد واسـتحقاق الزعامـة الدنيويـة والروحيـة بعـده، ومـا ردّدتـه الأدبيّـات الشـيعية مـن مطاعـن، ومـا اسـتقرّ في الوجـدان الجمعـيّ مـن اعتقـادات عدائيـة تناقلتهـا الأجيـال المتعاقبـة حـتّى انقلبـت إلى مـادّة معرفيـة موحّـدة تجمـع البـاثّ والمتقبـل معـاً في بداهـات اعتقاديّـة مذهبيـة، لأنّ «الـكلام الفعّـال يفـترض أنّ الّـذي يتكلّـم، والّـذي يسـمع لهـما معـا مجموعـة مسـلّمات»[١٦].

إذا كان الإعـلام الدّيـني التّلفـزيّ متجـذّراً في تربـة ثقافيّـة مـن المأثـورات والحكايـا والأسـاطير والنّمـاذج، فإنّـه مندمـج كلّيـاً في اسـتحقاقات سياسـية اجتماعيـة راهنـة تكتنفـه وتوجّهـه.

> الخطاب الدّيني جزء من أبنية معرفيّة تتعالق ضمن الكلّ الأيديولوجيّ الّذي يحيل إلى الأشكال الاجتماعية والعمليّات الّتي من خلالها تسري الأشكال الرمزية في العالم الاجتماعيّ

الأهداف:

مـن الواضـح أنّ الخطـاب الدّيـني جـزء مـن أبنيـة معرفيّـة تتعالـق ضمـن الـكلّ الأيديولوجـيّ الّـذي «يحيـل إلى الأشـكال الاجتماعيـة والعمليّـات الّـتي مـن خلالهـا وبواسـطتها تـسري الأشـكال الرمزيـة في العالـم الاجتماعـيّ»[١٧]، وهـو لذلـك منخرط في أنظمـة السّـلطة متكيّـف مـع رهاناتهـا ومراميهـا الـتي تتغيّـا تنميـط المعرفـة وأشـكال الاعتقـاد وضروب الممارسـة بالانتظـام في جسـم اجتماعـي موحّـد. وفي المـادّة الإعلاميّـة الدينيـة الـتي تقدّمهـا هـذه الفضائيـات مـا يقـوم دليـلاً عـلى الكتابـة الأيديولوجيّـة الـتي تنهـض بهـا، وتتركّـز في هدفـين متعالقـين: ترسـيخ السّـيادة واصطنـاع الحقيقـة.

الزّعامة المادية والروحية:

إنّ الدعـاة والشـيوخ و»اختصاصـيي المقـدّس» بعبـارة فيـبر (M. Weber) ليسـوا إلاّ أدوات في خضـمّ النظـام المؤسـسي المـشرف عـلى الشـأن الديـني برمّتـه. وعـلى هـذا النّظـام المؤسـسي أن يضمـن ديمومتـه ويصـون شرعيتـه ونفـوذه، لذلـك عليـه أن يشـغّل

١٤- بن سلامة، فتحي، تخييل الأصول: الإسلام وكتابة الحداثة، ترجمة: شكري المبخوت، دار الجنوب، تونس ١٩٩٥، ص ٥٤

١٥- انظر حلقات برنامج «كيف زيّف الإسلام؟» على موقع You Tube.

١٦- Silverstone, Roger, Télévision, Mythe et culture, Réseaux ,V ٩, N ١٩٩٠ ,٤٥-٤٤ , p. ٢١٤

١٧- Weiss, Gilbert and Wodak, Ruth, Critical discourse and analysis: theory and interdisciplinarity, Palgrave Mac- Millan Ltd, New York, ٢٠٠٣, p. ١٤١



كلّ الموارد المادّية والرمزية، أو ما تتيحه المواقع المؤسّسية من مداخل إلى السّلطة وآلياتها بما يفصح عن «الدّور الاستراتيجي للخطاب وأعوانه (المتكلّمون، والكتّاب والنّاشرون، إلى آخره) في إعادة إنتاج هذا الشّكل من السيطرة السّوسيوثقافيّة»[١٨]. ولا تكاد قناة فضائية دينيّة تخلو من ارتباط وثيق بدوائر سياسية ومالية نافذة شأن قناة «الناس» التي أنشأها رجل الأعمال السّعوديّ وعضو مجلس الشّورى منصور بن كدسة في ٢٠٠٦، وارتباط دعاتها بدوائر دينية مخصوصة، مثل اللجنة الدّائمة للإفتاء التي تتلمذ على أيادي «شيوخها»، أمثال عبد العزيز بن باز ومحمّد بن صالح العثيمين، الدّاعية محمّد حسّان[١٩].

ولا يختلف الأمر مع قناة «الحياة» المرتبطة بالدّوائر التّبشيريّة المسيحيّة ممثّلة في منظّمة «بويس ماير»، وهي تنخرط في سياق التّلفزة الإنجيليّة في الولايات المتّحدة الأمريكية بنفوذها المالي والسياسي والإعلامي[٢٠]. وفي ما تعرضه هذه القنوات ما يدعم السعي إلى شرعنة الزعامة وتوطينها في مخيال الجموع المؤمنة باستحضار مفهوم «الفرقة النّاجية»، بوصفها مثالاً للإسلام القويم، في ظلّ تنازع المقالات والمواقف الاعتقاديّة والفقهيّة. هذا الذي جعلته قناة «فدك» شعارا لبرنامجها «كيف زيّف الإسلام؟» مستدعية ذلك الحديث المنسوب إلى النبيّ «إنّ أمّتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة منها فرقة ناجية واثنتان وسبعون في النّار» (حسب الرواية الشيعية)، وهو حديث مرجعي تنازعته كلّ المذاهب والجماعات للفوز بهذه النبوءة التّاريخية التي جُعلت معبراً إلى استحقاق الزعامة الروحية، ومن ثم إلى الزعامة المادية، خاصة في ظلّ ارتباط هذه القنوات الفضائية بأنظمة سياسية

١٨- A.Van dijk,Teun, Discourse and Power , Palgrave Macmillan Ltd, New York, ٢٠٠٨, p. ١٤

١٩- انظر ويكيبيديا، قناة الناس.

٢٠- Gatwirth, Jacques, Religion télévisée et business audio-visuel, archives des sciences sociales des religions, N٨٣°, (Juillet-septembre), ١٩٩٣, p. ٧٨



(إيران/ السعودية...) لها رهاناتها الإقليمية الملحة في ظلّ التنافس على زعامة «الأمّة الإسلاميّة» بحجمها الديمغرافي والاقتصادي الهائل.

إنّ ما تقدّمه الفضائيّات الدينيّة العربية، يندرج في ما يسميه «إنزو باتشي» (Enzo Pace) و«سابينو أكوافيفا» (Aquaviva Sabino) «تقنيّات توسيع دائرة التّنظيم الديني» التي تجعل المادّة الإعلامية أداة «لترويج نوعية من الأفكار أو لدعم حملات سياسية وثقافيّة أو لاجتذاب مصادر تمويل لحملات إعلامية بشأن مواضيع تُعَدّ محوريّة»[٢١]. وبهذا، فالمادة الإعلامية الدينية متورطة في أغلب السياقات السياسية المحلية والإقليمية والدولية.

اصطناع الحقيقة:

بما أنّ المؤسسة الدينية تحتكر الشرعية ممارسة ودلالة[٢٢]، فبناء الحقيقة وضبط فحواها وتعيين مجالها هو الرّهان الأساس لها، خاصة وأنّ الحقائق هي الشّفرة الثقافية التي يهتدي بها أفراد مجتمع ما. والإعلام الدّيني العربي يتضمّن في مادّته الإعلامية مضامين معرفية وسلوكية، يمررها عبر برامج شتى كالرقائق والمواعظ والدراما التاريخية والسير والفتاوى، ويصوغها في صورة نموذجية تستدعي تقمصها والالتزام بها، لأنّ «الطبيعة الواقعية للسلطة تتخفى تحت بناء كاريزمي لتمظهر ثقافي»[٢٣].

> لقد كشفت هذه النّماذج الإعلاميّة الدّينيّة من قنوات فضائيّة عربيّة (الناس، الحياة، فدك) أنّ التّلفزيون أداة هائلة للحفاظ على النّظام الرّمزيّ

ولعلّ أكثر الحقائق التي اشتغلت عليها هذه القنوات الثّلاث هي بناء صورة الآخر، وضبط معالمه وتعيين دلالاته، لأنّ هذا الآخر شريك في عالم تنافسي محوره البضائع الرمزية، ومنها الحقيقة التي تشكلها الطوائف عن هوياتها وتاريخها ورموزها. فقناة «الناس» عرضت مادّة إعلاميّة لا تختصّ بهواجس المسلم السني واحتياجاته، بل تستهدف التخريب الرمزي للآخر بوصفه خصماً مذهبياً / سياسياً على غرار المحاضرة التي قدّمها الداعية أبو إسحاق الحويني بعنوان «التحذير من خطر الشيعة» في ١٢ ذي القعدة ١٤٣٢ هـ، أو المحاضرة التي قدمها الداعية محمد حسان في ٨ شوال ١٤٢٨ هـ عن «أمراض الأمّة: التّعرض للفتن»، وخصّص حيزاً مهماً للحديث عن العلاقة مع الغرب، وضرورة «التوقّي من سمومه». وهذه المادّة، وإن كانت تتزيّا لبوساً دينياً، فإنّها تتكفل باستنشاء جملة من الحقائق في أذهان الجموع المؤمنة؛ تكيّف تمثّلاتهم وعلائقهم مع الآخر. وفي قناة «الحياة» المسيحية، تُنتقى موضوعات مخصوصة وموجّهة تندرج في صراع تاريخيّ مشحون بعلامات كبرى دالّة. وقد عرض برنامج «سؤال جريء» في الحلقة ٤٠٢ اعترافات مُعتنقيْن للمسيحيّة بعدما كانا مسلمين، وكشفا تفاصيل تجربتيهما وما فيهما من «حقائق صادمة» عن الإسلام والمسلمين. الأمر نفسه في الحلقة ٢٩٣ وعنوانها «هل تصلح الشّريعة الإسلامية للعالم المعاصر؟» وفيها استثارة للفئات الشابّة ولطائفة من الشكوك في ارتباط

٢١- أكوفيفا، سابينو، وباتيئ، انزو، علم الاجتماع الديني: الإشكالات والسياقات، ترجمة: عز الدين عناية، كلمة: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م، ص ١٣١

٢٢- حدّد فيبر Weber ثلاثة أنواع من السّرعية: عقلية تقوم على قواعد عقلية، وتقليديّة أساسها العرف والموروث، وكاريزمية جوهرها فكرة القائد الروحي. نفسه، ص ١٦٩

٢٣- Négre, Fabier, Du pouvoir dans la culture, Quderni, N١٧°, printemps, ١٩٩٢, p. ٢٤

بمنجزات الحداثة ومكاسبها، وخاصّة الشتات المسيحيّ في دول أمريكا اللاتينية والدول العربية على غرار لبنان ومصر والعراق. ولا تنأى قناة «فدك» عن هذه الغاية، غاية اصطناع حقيقة الآخر من خلال الهدم المنهجيّ للنماذج التاريخية الموصوفة بالقداسة والحائزة على مكانة رمزية في ضمائر المسلمين السنة، ففي برنامج «كيف زُيِّف الإسلام؟» تستحضر شخصية عائشة اعتماداً على قراءة خاصّة لسورة «النّور» القرآنية، وبعض المأثورات عن علاقتها ببقيّة زوجات النبيّ وسلوكها بعد وفاته، وهي قراءة موجّهة تستهدف نزع المهابة وكشف الحقائق المخبوءة والدّفينة، بما يربك البناء الأرثوذكسي للآخر السنّي، خاصّة وأنّ عائشة مرجع نموذجي، ووسيط تاريخيّ ورمزيّ عن الإسلام المبكّر، يتموقع في صراع متجذّر مع نماذج نسويّة شيعيّة شأن فاطمة.

على سبيل الخاتمة

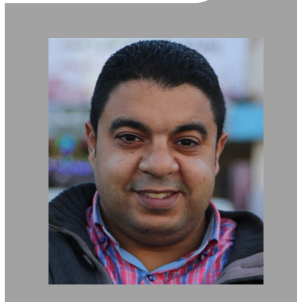
لقد كشفت هذه النّماذج الإعلاميّة الدّينيّة من قنوات فضائيّة عربيّة (الناس، الحياة، فدك) أنّ «التّلفزيون أداة هائلة للحفاظ على النّظام الرّمزيّ»[٢٤]، والنّظام الرّمزي شبكة من الحقائق والدّلالات وأنساق من العلاقات والأدوار تمثّل مجتمعة الكون الثقافي العام. والمشتغلون في هذه القنوات من مسيّرين وتقنيين ودعاة وممولين هم جزء من شبكة سياسية واجتماعية ومالية تحرّكها استراتيجيّات متعالقة لأنظمة سياسية ودوائر نفوذ تطمح إلى افتكاك موقع فعّال في عالم معولم، تخطّت فيه المؤسّسة الدّينيّة الأطر المحلّيّة، لتصبح كياناً عبر - وطني يخاطب أتباعاً مفترضين أو مرشّحين للاصطفاف المذهبي والسياسي.

إلاّ أنّ العولمة التي وسعت حدود التماس وإمكانات التعايش، لم تدفع عن الإعلام الديني العربيّ انخراطه في دوائر من الصراعات والمماحكات التي استدعت صوغ خطاب كراهيّة وإقصاء، يمنع أيّ مجال لتواصل دينيّ خلاّق يلتقي، رغم تعدّده وتباينه في رصيد روحي وإيتيقي وثقافي مشترك، ويمنح للبشر مدخلاً إلى إنسانية متبادلة بين الجماعات والطوائف والإثنيات.

لقد عكست حالات الاحتراب الطّائفي والصراعات الأهليّة في كثير من الأقطار العربيّة ما يمكن أن يفعله المال والإعلام والدّين في خلق الفوضى وتعميق الشّروخات وازدراع الصّدمات الوهميّة والهويّات القاتلة، بإنتاج خطاب دينيّ منغلق وموجّه يبذر المغالطات، ويتلاعب بالضمائر والعقول، ويأسر أفق المجتمعات رهينة، وهو ما يقتضي منّا وعياً حذراً بالخطاب الدّيني في أدواته ومضامينه ومقاصده، ووعياً بمعيشنا الجماعي المشترك في رهاناته ومعضلاته وموجباته. كلّ هذا يستوجب إعادة الدين إلى محضنه الثّقافي وسياقاته التّاريخية بنزع القداسات المفتعلة، وإعادة إنتاجه وفق الاحتياجات الأكيدة والحاسمة للمجتمعات العربية المعاصرة.

٢٤- بورديو، بيار، التلفزيون وآليات التّلاعب بالعقول، ترجمة: درويش الخلوجي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤٥





بقلم : محمد سيد ريان

كاتب وباحث مصري في الإعلام الجديد والثقافة الرقمية

الإعلام الديني العربي بين الدعوة والتبشير وبث الفتن الطائفية

تعد قضية الخطاب الديني في عصرنا الحالي، وممارساته الإعلامية من أخطر القضايا التي تشغل بال الكثير من الباحثين، أو حتى الأشخاص العاديين الذين يتابعون البرامج على الفضائيات والمواقع الإلكترونية، ويتأثرون وينفعلون لما فيها من تجاوزات على كل المستويات؛ ففي عصر الكره والقبح الذي نعيشه حالياً تختفي قيم الجمال والحب بين الناس، ونفتقد قبول الآخر والتعامل بأخلاقيات الحوار، واحترام الاختلافات في الفكر والرأي.

في هذه الورقة البحثية، سنركز على دور التكنولوجيا الرقمية، ومنها الوسائط الاجتماعية من خلال المواقع الإلكترونية، والصفحات الاجتماعية، والقنوات الرقمية للإعلام الديني؛ فأدوات الإعلام الجديد تعد بمثابة تطور طبيعي للأساليب التقليدية التي تفرض سنن الحياة والواقع والحاجة البشرية، وهذا التطور جاء ليواكب مجريات الحياة المعاصرة والسريعة والجديدة ويواكبها؛ ومن هنا تكمن العقبات والنتائج من التخلف عن ركب الحضارة والتقدم في المجال الشبكي للربط بين الأفراد والجماعات والمؤسسات على مستوى العالم؛ ففي هذه الحالة سنخرج من القطار السريع للمعرفة، وعند العودة لن نجد مكاننا لأن هناك من ينتظرون أن تترك لهم هذا المكان.

ماهية الإعلام الديني

يعتقد الكثيرون أن الإعلام الديني هو القنوات المتخصصة الدينية الإسلامية التي تبث عبر الفضائيات والمواقع الإلكترونية فقط، لكن يجب التأكيد على أنه



أوسع من ذلك بكثير، لأنه يشمل أيضا البرامج الدينية التي تبثها القنوات العامة، كما لا يقتصر فقط على القنوات الدينية الإسلامية التي تعبر عن تيارات الإسلام السياسي أو السلفية بمختلف اتجاهاتها، أو القنوات الشيعية، وإنما يمتد أيضًا إلى القنوات المسيحية، ويشمل ما يبث عبر القناة على الهواء والموقع الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي، فهو منظومة متكاملة.

الإعلام مرآة العصر

في عصر مليء بالصراعات الطائفية والاستقطابات الفكرية تختفي العديد من قيم الحوار، ويأتي الإعلام كانعكاس حي لما يحدث بين الأفراد في المؤسسات والتعاملات اليومية، كما تنعكس الفوضى الفكرية والسياسية والدينية على معظم البرامج الإعلامية، سواء بتسييس كثير من الأفكار لخدمة مصالح جمعيات وأفراد ورؤوس أموال أو الهجوم المتزايد كجزء من صراعات دينية قديمة تقوم في أغلبها على تفسيرات خاطئة للدين، أو تطبق قياسات لأحداث وشخصيات لم تعد موجودة، وتحاول من خلال ذلك تغذية الصراعات والنزاعات الإقليمية التي تهدد الأمن القومي.

وقد استغل الإعلام في الفترة الأخيرة، وخصوصاً بعد ثورات الربيع العربي التي أتاحت دخول كتل بشرية جديدة لم تكن ظاهرة الرأس، وإنما تختفي دائماً وتعمل في سرية مع أتباعها، فقامت مثلاً قوى الانغلاق والنقل الحرفي لتراث السلف التي ترفض أي تجديد، وتتبع ما جاء به الأقدمون مع نبذ أي فكر جديد، سواء أكان واردا من حضارات أخرى، أو نابعاً من داخل ثقافتنا. وكانت دائما بالمرصاد لكل محاولات التطوير وملاحقة الزمن المتغير بإنشاء قنوات تحت شعارات براقة، باعتبارهم الممثل للدين الصحيح، وأنهم الأحرص على استمراره من غيرهم، مما أدى إلى تصدع في المجتمع مازلنا نعاني من تبعاته، وخصوصاً بعد فشل حل الإسلام السياسي وانكشاف أمره، فلجأوا إلى تجاوزات أكثر، منها التخويف والتكفير والقتل.

وسنركز في هذه الورقة، على ثلاثة نماذج لقنوات أثارت جدلاً كبيراً من خلال برامجها، وساعدت على زيادة الفتنة الطائفية بين الدول والشعوب العربية والإسلامية، وهي قناة «الناس» المعروفة بالتوجه السلفي، وقناة «الحياة» المسيحية التي تركز على مقارنة الإسلام بالمسيحية في أغلب برامجها، وقناة «فدك» الشيعية.

شعارات الإعلام الديني بين المعلن والمستتر

تعلن معظم القنوات الدينية، أنها تهدف إلى نشر «الدين الصحيح»، وأنها الطريق لإصلاح الدنيا بالدين، ومن ثم فمن يحرص عليها، فهو في الجنة، ومن يشاهد غيرها فهو في النار، ومن ذلك شعار قناة الناس «شاشة تأخذك للجنة». وهذا الشعار بالذات، يوضح وجهة نظرهم من أن طريقهم مهما كان هو الطريق إلى الجنة وشاشات غيرهم هي الشاشات التي تؤدي إلى النار ربما، ويظهر ذلك في كثير من برامجها التي تؤكد امتلاكهم للحقيقة المطلقة، وتسييس الدين لخدمة أهداف أخرى سياسية كما ظهر خلال بعض الفترات التي سبقت ثورة الثلاثين من يونيو في مصر.

مثال آخر، نجده في قناة «فدك» الشيعية، والتي تتخذ شعاراً لها «لا راية تبقى أمام راية آل محمد»، ويتضح من هذا الشعار، أنها تنطلق من الصراع القديم بين

السنة والشيعة وهدفها تبشيري، وهو ما يؤكده المؤسسون للقناة حول أهدافها: «تنقية التراث الإسلامي من العقائد الفاسدة والأفكار المغلوطة للعودة بالأمة إلى منهاج النبي وخلفائه الشرعيين من عترته».

وفي المقابل، نجد قناة «الحياة» المسيحية وشعارها: «لتنال الحياة الأبدية اتبع يسوع المسيح»، وهذا ترسيخ آخر لامتلاك الحقيقة المطلقة، فطريق الخلاص هو طريقهم وطريق الهلاك هو اتباع أي اتجاه أو دين آخر، وهي قناة تتخذ التبشير بالمسيحية هدفاً لها، ومحاولة التركيز على التقليل من الإسلام عن طريق بعض الكتابات والأحداث المتغيرة.

في عصر مليء بالصراعات الطائفية والاستقطابات الفكرية تختفي العديد من قيم الحوار، ويأتي الإعلام كانعكاس حي لما يحدث

وهكذا تتجه القنوات الثلاث الاتجاه نفسه، فتدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، سواء بالدعوة إلى سلفية تأخذك للجنة، أو اتباع مجموعة هي التي توصلك إلى الجنة كما في حالة آل البيت، أو الزعم أن هناك ديناً واحداً هو الصحيح، ويحقق الأبدية السعيدة كما في حالة المسيحية التبشيرية.

الإعلام الديني على مواقع التواصل الاجتماعي

سنقوم برصد وتحليل سريع لما تتضمنه صفحات القنوات الدينية على المواقع الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي، وبالأخص على الـ«فيس بوك» لما له من تأثير كبير، كما في الجدول التالي:

القناة	الصفحة الرسمية على فيس بوك
قناة الناس	https://www.facebook.com/alnasschannel
قناة الحياة	https://www.facebook.com/alhayattvchannel
قناة فدك	https://www.facebook.com/FadakTV٣١٣

وأول ما يلفت النظر عند مشاهدة تلك الصفحات هو تعريف الصفحة، فتذكر قناة «الناس» أنها «قناة فضائية دينية، تهدف إلى عرض الإسلام النقي، ونشر الفكر الوسطي، والتصدي للأفكار المتطرفة والهدامة، والمحافظة على منظومة القيم والأخلاق»، بينما تذكر قناة «الحياة» أنها: قناة مسيحية هدفها أن يعرف العالم يسوع المسيح، وأن يخلصوا». أما قناة «فدك»، فتذكر أنها «قناة عصرية تخاطب الملايين بلغة علمية موضوعية وبمضمون عقائدي أصيل وجريء لا يعرف المجاملة على حساب الحق».

> تعلن معظم القنوات الدينية، أنها تهدف إلى نشر «الدين الصحيح»، وأنها الطريق لإصلاح الدنيا بالدين

ويتضح من التعريفات الثلاثة مدى سمو الأهداف المعلنة، والتي تجذب الكثيرين للمتابعة، ولكن على النقيض تختلف المواد الموجودة بالقنوات الثلاث التي تدعو في أحيان كثيرة إلى الطائفية والتكفير والقتل، وفي بعض الأحيان تدافع عن أهداف شخصية لأفراد وجماعات.

وسنعرض في ما يلي لبعض تلك النماذج التي تؤكد بُعد التعريف العام عن التطبيق العملي في حالات كثيرة ومتنوعة، ونبدأ بسرد ذلك على التوالي:

قناة «الناس»



من خلال متابعتنا لقناة «الناس»، وبالتركيز على المواد الإلكترونية والتسجيلات المتاحة على اليوتيوب وغيرها من القنوات الرقمية، تبين وجود الكثير من المواد

المحرضة على التكفير، سواء للأفراد أو للمجتمع بأكمله، ومنها ما جاء في برنامج خالد عبد الله «سهرة خاصة»، ومداخلة الدكتور حسام عقل من حديث الشماتة في وفاة أحد أعلام التنوير في العالم العربي؛ المفكر الديني الدكتور نصر حامد أبو زيد وتكفيره، وحديثه عن هروب الأهالي والمسؤولين من حضور جنازة الراحل، وأنه خارج عن الدين وكافر، ويطعن في القرآن والسنة النبوية.

من خلال متابعتنا لقناة «الناس» وغيرها من القنوات الرقمية، تبين وجود الكثير من المواد المحرضة على التكفير

وهناك أيضاً عدم تقدير للظروف الراهنة في كثير من البرامج واللعب على أوتار الطائفية، كما حدث في أعقاب أحداث «ماسبيرو»، ومظاهرات الأقباط في القاهرة، وهجوم الشيوخ على الأقباط من منظور طائفي لا وطني.

وهناك أيضاً، الهجوم على الدكتور سيد القمني، وكان من أشد المهاجمين صفوت حجازي مقدم برنامج «فضفضة» في قناة «الناس»، ووصفه بأنه «هذا الشيء»، أو «اللا شيء»، ووصفه أيضاً متصل بالقناة في هذا البرنامج بأنه «ابن قميئة» وغيرها من التشبيهات غير المناسبة.

ويتضح من محاولات التكفير، أنها تعطي ضوءاً أخضر للقتل المادي أو القتل المعنوي من الإيذاء والتجريح للأشخاص بين أسرهم وزملائهم في العمل وأصدقائهم في الحياة. دون أن ننسى محاولات زج الدين في السياسة كما حدث مع الشيخ محمد حسين يعقوب بعد استفتاء ١٩ مارس ٢٠١١، بخصوص ما سمي بـ«غزوة الصناديق»، وأن الشعب قال نعم للدين وللإسلام، وهو تسييس صريح للدين، وضد فكرة المواطنة ومدنية الدولة. كذلك محاولات الشحن ضد المناسبات والاحتفالات الرمزية، مثل عيد الأم وحديث الشيخ أبي إسحاق الحويني عن حكم عيد الأم، وأنه بدعة والاحتفال به لا يجوز.

قناة «الحياة»



كما ذكرنا من قبل، فإن قناة «الحياة» تذكر في تعريفها أنها: قناة مسيحية هدفها «أن يعرف العالم يسوع المسيح وأن يخلصوا»، وكان من المنطقي في هذا الإطار، أن تركز على الدين المسيحي وعظاته وملامح تنمية إيمان المسيحين بالرجوع إلى أصول الدين المسيحي المعتدل، والدعوة للاهتمام بدراسة الكتاب المقدس، ولكن ما يحدث أنها تركز على نهج طائفي من التركيز على اختيار نماذج إسلامية تشجع روح الفتنة الطائفية، وإثارة المشاكل بين مواطني الدول الإسلامية، وعمل برامج مهمتها انتقاد الدين الإسلامي والرسول محمد، وهو ما يساعد على وضع بذور أزمات عديدة لا تنتهي بين المسلمين والمسيحين.

وقد انتقلت القضايا التي تناقشها قناة «الحياة» من شاشات الفضائيات إلى مواقع التواصل الاجتماعي، ويظهر من صفحة قناة الحياة على الفيس بوك، كم من «البانيرات» أو الشعارات الإعلانية التي تتضمن محتوى من مواد القناة وتساعد على الفتنة الطائفية، ومنها مقارنة بين الله في الإسلام والمسيحية، فيذكر منشور على الصفحة أن «الله في الإسلام يحب الذي يحبه.. الله في المسيحية يحب كل العالم»، وهي قضية ما لبثت أن هوجمت بشدة في قنوات إسلامية، ومنشور آخر تحت عنوان «مفارقات»، يقول: «كل الرسل في العهد القديم كانوا يقولون: أطيعوا الله ويعطون كل المجد لله وينكرون أنفسهم.. أما في الإسلام، فعليك أن تطيع الله ورسوله، ويشرك القرآن محمد في كل أوامر الطاعة»، كما يتحدثون في منشورات أخرى عن «تناقضات القرآن» وقضية الناسخ والمنسوخ وغيرها من القضايا الخلافية، ويتضح من سياق المنشورات اجتزاء واضح وصريح دون مراعاة سياقات الأديان والرسالات السماوية.

> تعد قناة «فدك» من أبرز القنوات الشيعية التي تسبب العديد من المشاكل داخل الدول العربية

إلا أن أخطر ما في قضية الانتقاد الديني هو الربط بين قضايا معاصرة وجماعات إرهابية تحركها جهات دولية ومنظمات ورؤوس أموال، وبين الفتوحات الإسلامية ففي منشور على الصفحة، يذكر «داعش تعطينا صورة معاصرة للفتوحات الإسلامية»، وذلك يعطي ذريعة لاتهام الدين الإسلامي بأنه دين العنف والإرهاب، وهو أمر مرفوض.

ويظهر أيضا، من برامج القناة ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة في إعلان منشور على الصفحة، يذكر «يسوع المسيح.. هو الطريق الوحيد للسماء»، وهو مشابه لبعض الاتجاهات المتطرفة في الدين الإسلامي من احتكار الجنة للمسلمين.

قناة «فدك»



تعد قناة «فدك» من أبرز القنوات الشيعية التي تسبب العديد من المشاكل داخل الدول العربية، ومؤسسها هو ياسر الحبيب، وهو ينتمي إلى الشيعة الإمامية الاثني عشرية أو الرافضة، وهم فرقة تمسكت بحق عليٍّ في وراثة الخلافة دون أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وهم يتخذون اثني عشر إماماً، ويعتقدون أن كل الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان، وعن اقتراف الكبائر والصغائر، كما يعتقدون بدخول آخرهم، وهو الحسن العسكري، ويلقبونه بالحجة المهدي القائم المنتظر، وسيعود في

آخر الزمان، عندما يأذن الله له بالخروج، وهم يقولون بأنه حين عودته، سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وسيقتص من خصوم الشيعة على مدار التاريخ.

وعلى الرغم من الأهداف المعلنة للقناة، من أنها خطوة إعلامية شيعية «ثورية تأتي استجابة لإلحاح جماهيري على ضرورة تأسيس قناة عصرية تخاطب الملايين بلغة علمية موضوعية وبمضمون عقائدي أصيل وجريء لا يعرف المجاملة على حساب الحق»، إلا أن الملاحظ أن التركيز يكاد يكون على قضايا الخلاف مع السنة وسب الصحابة وأمهات المؤمنين، وهم ركن أساسي في الاعتقاد الديني لدى المجتمعات الإسلامية السنية، ويساعد ذلك على بث روح الفتنة الطائفية، ومن ثم الاقتتال.

ويظهر في كثير من برامج القناة التطاول بصورة صريحة على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين، خاصة السيدة عائشة والسيدة حفصة. كما أشعل مواقع التواصل الاجتماعي، مقطع فيديو تُعلن فيه فتاتان مصريتان من مدينة الزقازيق، بمحافظة الشرقية، تشيعهما عبر القناة، مما زاد من الهجوم على القناة من السنة.

ومن أبرز المنشورات التي تضعها صفحة القناة الحديث عن هلاك عمر بن الخطاب، وقولهم بأنه في النار، ومن المعروف أن عمر بن الخطاب من أبرز النماذج الإسلامية لدى أهل السنة.

كما يدخل في برامج القناة تسييس للدين في قضايا ومشكلات حالية بين الدول، كما في حالة إيران والسعودية، فعند وفاة ملك السعودية الراحل عبد الله بن عبد العزيز أذاعت قناة «فدك» بثا مباشرا لاستقبال المؤمنين - حسب وصفهم - لتقديم التهاني والتبريكات بمناسبة وفاة الملك، ومثل تلك التصرفات الإعلامية تساعد على زيادة روح العداء المستمر بين الدول والشعوب، ومن ثم إلى الحروب والاقتتال، ولعل نماذج مما يحدث باليمن يشير إلى ذلك.

ينبغي التأكيد في الختام، أنه لا بد من توظيف أدوات تكنولوجيا المعلومات والإعلام الجديد لخدمة القضايا القومية والإنسانية، وتحقيق القوة الحضارية للعرب في ظل المتغيرات المحلية والعربية والإقليمية والدولية. ومن خلال التسويق الإلكتروني لإفادة مئات الملايين من المستخدمين الذين يتصلون بشبكة الإنترنت يومياً من جميع أنحاء العالم. ومن هذا المنطلق، يمكننا استغلال تلك الفرصة وتحويل الإنترنيت إلى ساحة مفتوحة للحوار؛ وتتمثل أدوات التسويق الإلكتروني في استغلال محركات البحث، وعضوية المواقع والبريد الإلكتروني وبرامج المشاركة، وكذلك - وهي الأهم - الشبكات الاجتماعية، في الربط والاتصال مع الناس، ووسيلة للربط والوحدة في ظل التنوع، فنحن لدينا فرصة ذهبية، وهي تواجد الشباب بصورة كبيرة على الأنترنيت، وهم طاقة يمكن استغلالها بصورة جيدة، ليشكلوا حائط صد ضد كل محاولات التشتيت والتفرقة بعيداً عن قضايا الأمة الحقيقة والمصيرية.



بقلم : محمد بغداد
باحث وأكاديمي جزائري

القنوات الدينية ومعابر «الانتحار» الفضائية

إن المناخ الذي يسود الوطن العربي يمتاز بالخوف النفسي والاضطراب الاقتصادي والقلق الاجتماعي، وذلك يشكل الأرضية الخصبة للقنوات الدينية للاستثمار فيها، انطلاقاً من استغلال هذا المناخ لجعل المواطن العربي تحت رحمة الخطاب التخويفي، خاصة عندما يرتكز على مشاهد الآخرة وعذاب جهنم، وما ينتظر هذا المواطن الذي يجد نفسه مستسلماً لهذا الخطاب، كونه يتعلق بالنجاة مهما كانت، ويتطلع إلى التخلص من الألم الذي يحاصره يومياً، ويعمل الخطاب الديني الإعلامي عبر الفضائيات على التواصل مع هذه الآلام والتعايش معها، وتقديمها على أنها نتيجة مباشرة لتقصير الحكام والقائمين على الأمر العام من خلال ابتعادهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وهو نتيجة طبيعية لهذه القراءة. ومن ناحية أخرى، تقدم صوراً ووقائع تاريخية متناقضة تماماً مع الواقع الحالي، ولكنها تسوّق على أنها الحلول السحرية، وأن الواقع سيكون فيه من المتعة واللذة، ما يجعل الإنسان في موقع المستهلك، دون أن يقوم بأدنى جهد ولا يفكر في العمل أو التفكير في مصيره، وكيفية العيش في الحياة والتكيف مع ظروفها، ويسير الخطاب الديني نحو الماضي وليس التاريخ، ناشراً بذلك قيم الخمول والكسل والتراخي، ويدفع المستهلك إلى التطلع إلى العوالم الخيالية البعيدة عن الواقعي والمنطقي.



العملية الإعلامية الحديثة، متشابكة المفاهيم، ومعقدة الآليات، ومركبة الأهداف، ويغلب عليها الكثير من التطور والتغير، وتتجاذبها العديد من المدارس، وتتزاحم فيها النظريات، وهي نتيجة الجمع بين المستوى النظري والتطبيقي، ونتيجتها رسالة إعلامية مختلفة المجالات والأهداف، مما يجعل من السهولة الإقدام على استهلاكها، ولكن في الوقت نفسه نواجه صعوبة استيعابها في الكثير من الأحيان، لأن الأمر يتعلق بالتأثيرات التي تخلفها في واقع الحياة إننا إذ نتحدث عن الإعلام الديني لا نريد أن نتورط كما يفعل البعض بالدعوة إلى إقصاء هذا النوع من الخطاب، ولا يصل الأمر بنا إلى التهليل له، أو القول بأن التركيز عليه ضرورة ملحة، ولكننا نود فقط، أن يتنبه المسؤولون إلى الجانب الأخلاقي والفكري تجاه الأجيال الحاضرة والقادمة، وهذا من خلال لفت النظر إلى خطورته التي عايشناها طيلة السنوات الماضية، وأن التاريخ يجعلنا محترمين، إذا تمكنا من مسايرة الآخرين، ممن نجحوا في استثمار الموروثات الثقافية التي شكلت مجتمعاتهم، وحولوها إلى فرص نجاح، وحققوا بها الكثير من الإنجازات، وحموا بها المصالح العليا لبلدانهم.

> العملية الإعلامية الحديثة، متشابكة المفاهيم، ومعقدة الآليات، ومركبة الأهداف، ويغلب عليها الكثير من التطور والتغير

ومن المعلوم، أن تناول موضوع الإعلام عموماً، والرسالة الإعلامية على وجه الخصوص، من أدق مجالات البحث العلمي في سياق الإعلام الديني الذي يحمل مفهومه، باعتباره وسيلة نقل مضامين الوحي المعصوم، ووقائع الحياة البشرية المحكومة بتغير قوانين التاريخ.

مؤكدٌ أن العملية الإعلامية مهما كان مجالها، فإنها تقوم على الأركان التالية: أولاً المرسل للرسالة، وثانياً المستقبل لها، وثالثاً الوسيلة التي تحملها، ورابعاً الرسالة المتضمنة، وخامساً الأثر الذي تنتجه هذه الرسالة، وإذ نختار الحديث عن موضوع

الإعلام الديني، وبالذات في المرحلة الحالية التي يمر بها الوطن العربي، نعترف مسبقاً أنه موضوع من المفروض أن يكون نتاج مجموعة من الجهود والدراسات الجماعية التي تسعى للاقتراب من تلك الظاهرة الدينية وتفهمها، وبالذات في شقها الإعلامي بواسطة ما هو متاح من التقنيات والأساليب البحثية الحديثة، وذلك بهدف فهم تلك الظاهرة، والسعي إلى تفكيك مضمونها المفاهيمي ورصد تجسيداتها الميدانية، والوقوف عند نتائج تمظهراتها وتعاطيها مع القيم الجديدة، الناتجة عن العملية الإعلامية في الأوساط الدينية.

١. استراتيجية السلوك

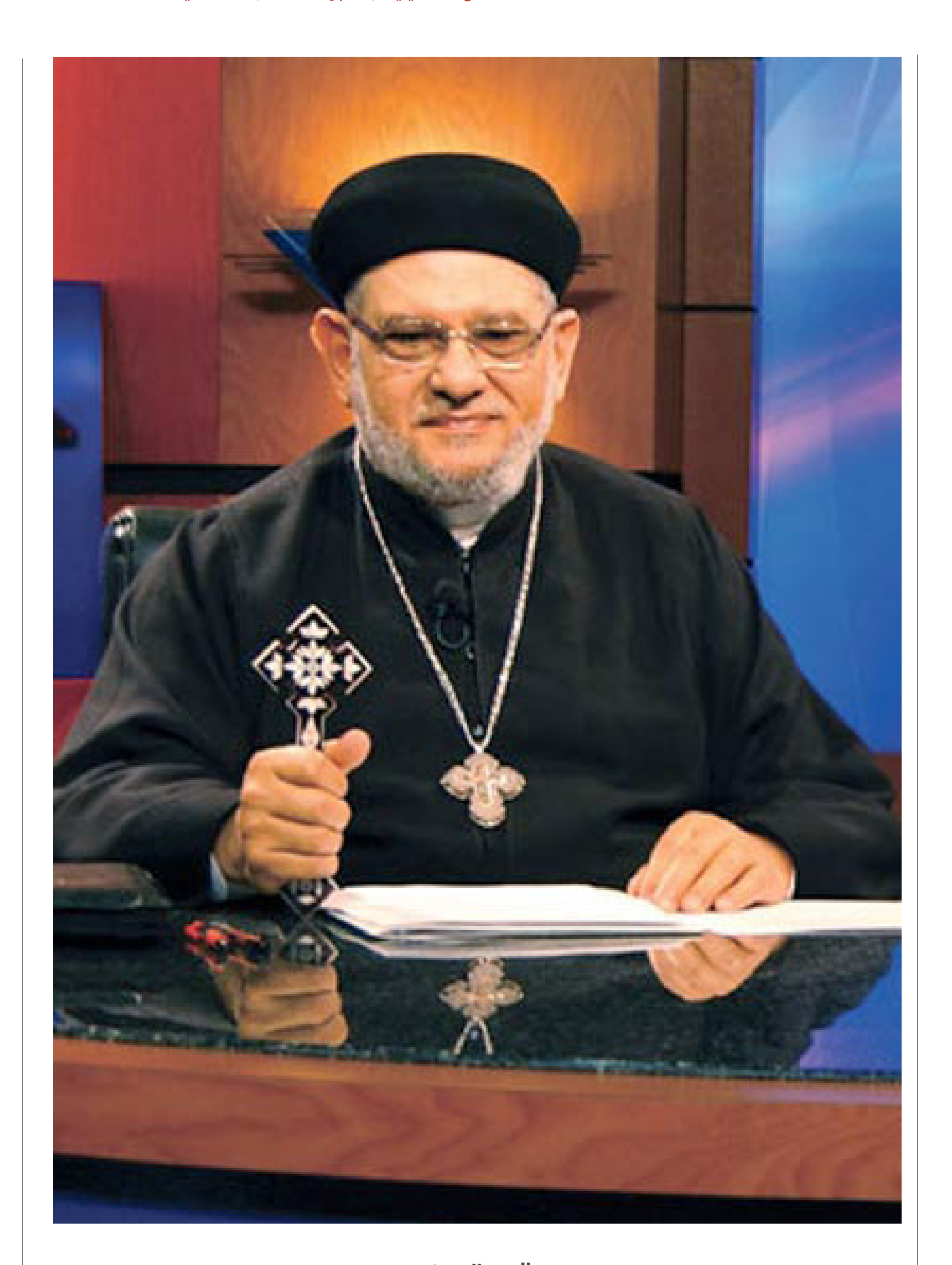
يعمل خطاب القنوات الدينية على الاهتمام الكبير بالرسالة الإعلامية التي ينتجها، لأنه يراهن على التعاطي مع المنظومة السلوكية للمستهلكين عبر استراتيجية معدة مسبقاً من طرف الهيئات القائمة على هذه القنوات، وهي السلوكيات التي تكون في الغالب المستهدف الأساس في الرسالة الاعلامية، لأن المراد هو التحكم في إدارة سلوك المواطن وتوجيهه وفق الأهداف الاستراتيجية التي يرسمها الخطاب الديني الإعلامي، وفي مقدمة السلوكيات العلاقة مع الآخر، سواء الآخر القائم في المحيط الذاتي أو ذلك البعيد عبر تحديد المعنى الأساسي الذي تأخذه الصياغة النهائية لهذه العلاقة.

فالرسالة الإعلامية للقنوات الدينية موجهة بالدرجة الأولى، إلى المؤمن لا إلى المواطن، والمؤمن حسب هذا الخطاب المحكوم بمجموعة من القوانين الغيبية التي يتم تأويلها وتقديمها على أنها مسلمات مطلقة، مدعو إلى استهلاكها والتسليم لمنطقها.

يشكل الأسلوب الإخباري الذي يتكئ عليه خطاب القنوات الفضائية الاستراتيجية المهمة في تسويق خطابها، وهو الأسلوب المستمد من التراث السردي الإخباري في الحكايات والقصص القديمة، ويتم ذلك بالمزج المتعسف لأسلوب الأحاديث النبوية والحوادث والوقائع التاريخية، التي تمتلك التشويق والجذب، وتوقع المستهلك في شراكها الماضوي، بالتحديد للراغب في العيش في فضاءات أخرى تخفف عنه الألم اليومي.

إن الظاهرة على مستوى الخطاب، تمتد إلى قراءة الأفكار الكبرى التي تصنع نسق العملية الإعلامية الدينية، انطلاقاً من القاموس اللغوي المستخدم في هذا الخطاب، مروراً بالجهاز المفاهيمي الذي يتعاطى مع هذا القاموس، لأن ذلك تم بفضل الوقوف عند الخلفيات الفكرية التي تؤطر العملية الإعلامية الدينية، سواء كان في مرحلة الإنجاز أو في مرحلة ما بعد الاستهلاك. وقد يغلب هذا الاهتمام على الكثير من الاهتمامات.

إننا، إذ نتناول هذا الموضوع، نعرف ما يعانيه الإعلام الديني، وما يتكبده الصحفيون يومياً، في مسيرة النضال ليس من أجل مشهدية إعلامية تثري الساحة وتنعش المشهد، وتفتح الباب أمام آفاق جديدة، بل هم ينافحون من أجل الخبرية المهنية العادية، إننا نعترف بأننا نؤجل أحلامنا المشروعة، ولكن نأمل أن يتجه أولئك الذين لم تزل فيهم بواعث الإرادة أو الرغبة في إمكانية الانتقال إلى الضفة الأخرى من الواقع.



٢. عقيدة الخلاص

إن المناخ الذي يسود الوطن العربي يمتاز بالخوف النفسي والاضطراب الاقتصادي والقلق الاجتماعي، وذلك يشكل الأرضية الخصبة للقنوات الدينية للاستثمار فيه، انطلاقاً من استغلال هذا المناخ، لجعل المواطن العربي تحت رحمة الخطاب التخويفي، خاصة عندما يرتكز على مشاهد الآخرة وعذاب جهنم، وما ينتظر هذا المواطن الذي يجد نفسه مستسلماً لهذا الخطاب، كونه يتعلق بالنجاة مهما كانت، ويتطلع إلى التخلص من الألم الذي يحاصره يومياً، ويعمل الخطاب الديني الإعلامي عبر الفضائيات على التواصل مع هذه الآلام والتعايش معها، وتقديمها على أنها نتيجة مباشرة لتقصير الحكام والقائمين على الأمر العام من خلال ابتعادهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وهو نتيجة طبيعية لهذه القراءة ومن ناحية أخرى، تقدم صوراً ووقائع تاريخية متناقضة تماماً مع الواقع الحالي، ولكنها تسوّق على أنها الحلول السحرية، وأن الواقع سيكون فيه من المتعة واللذة ما يجعل الإنسان

في موقع المستهلك، دون أن يقوم بأدنى جهد ولا يفكر في العمل أو التفكير في مصيره، وكيفية العيش في الحياة والتكيف مع ظروفها، ويسير الخطاب الديني نحو الماضي وليس التاريخ، ناشراً بذلك قيم الخمول والكسل والتراخي، ويدفع المستهلك إلى التطلع إلى العوالم الخيالية البعيدة عن الواقعي والمنطقي.

إن المتتبع لسلوكيات التيارات المنتجة لخطاب الإعلام الديني في العالم العربي، تعرف بممارسة الفوضى التي تعتمدها للسيطرة على الساحة الإعلامية في القضايا الدينية، وذلك راجع إلى الخلل في الرؤية والسعي إلى مجاراة ما هو سائد في الساحة الإعلامية العالمية، وهو الخلل الذي يشمل المؤسسات الإعلامية الخاصة، وتلك التابعة للدولة، وتنتج عنها صراعات قوية تطبع الساحة الإعلامية الدينية داخلياً، وهو صراع محموم وخطير، وإن لم ينتبه إليه الكثير من المتتبعين.

٣. التحولات الكبرى

وباعتبار الإعلام الديني من ناحية المضمون أيديولوجية وهوية، يعتبر استراتيجية سياسية للتيارات الدينية التي يعرفها العالم العربي، عرفت انتعاشها البارز بعد ما سمي بـ«الثورات العربية» أو «الربيع العربي». وإذا الإسلام هو الدين السائد في الوطن العربي، وأحد مكونات الهوية الوطنية، إلا أن المرجعيات الفقهية تنوعت مع ظهور الحركات الدينية الحديثة، وهذا يجد انعكاسه في وسائل الإعلام الدينية، بسبب التغيرات التي مرت بها المنطقة العربية، وظهور الجماعات المسلحة بمرجعية إسقاط السلطة لانحرافها عن الدين، دفعت السلطة إلى نزع الحجة باستعادة الدين من الجماعات المسلحة، وقد قامت السلطة بذلك بتصور نفسها حامية للدين، بينما قدمت خصومها بوصفهم خارجين عنه، فأصبح الصراع بين من يستحوذ على الدين، لتعزيز شرعيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

> الرسالة الإعلامية للقنوات الدينية موجهة بالدرجة الأولى، إلى المؤمن لا إلى المواطن

إن الإعلام الديني في أبعاده المختلفة أصبح صناعة تجارية، وبالذات عندما لقي إقبالاً من طرف الشباب، فحدث السباق على إنشاء الإعلام الديني، من صحف وفضائيات وإذاعات ومواقع إلكترونية؛ لأنه يقدم حلولاً آنية للشباب عجزت عنها السلطة والنخبة السياسية، فالدين يملك تهدئة للنفوس، على الأقل يعدهم بآخرة جميلة ومريحة. إن المرجعيات الفكرية والثقافية التي تقوم عليها الظاهرة الإعلامية الرسمية، تتصادم مع المرجعيات الأيديولوجية للسلطة القائمة، وتتورط في تهديم الكثير من الأهداف التي تعمل السلطة على تحقيقها، ويرجع ذلك إلى غياب استراتيجية واضحة للسلطة حول هذا الملف المهم. دون إغفال الظاهرة الإعلامية الدينية إلكترونياً، والتي يتفوق فيها التيار الوهابي والجماعات المسلحة، الذي تمكن من السيطرة على الخطاب الإعلامي للمؤسسة الرسمية. وسيشهد المستقبل الكثير من التطور والسيطرة لهذا الخطاب الذي ينذر بنتائج خطيرة.

٤. مركزية الكون الشيعية

إن البعد الشيعي في خطاب القنوات الدينية، يقدم ولاية الفقيه على أنها النموذج السياسي المتعالي والراقي الذي تطمح إليه الشعوب العربية، وهو التسويق الذي يتم في مناخ التطورات الجديدة لملف العلاقات الإيرانية الغربية، حول الملف

النـووي الإيـراني في ظـل التوقعـات المفاجئـة للكثيريـن، وتأثيراتهـا عـلى جغرافيـة المنطقـة.

إلا أن الملفـت للانتبـاه في خطـاب القنـوات الدينيـة الشـيعية، أنهـا تحـاول أن تعتمـد عـلى تجـاوز عقبـات منغصـات المـاضي، في الـصراع التاريخـي بـين أهـل السـنة وفـرق الشيعة، إلا مـا يخـدم الخطـاب الإعلامـي الجديـد، عـبر تـناول موضـوع العدالـة الكونيـة، والـصراع بـين الحـق والباطـل، باعتبـار الشـيعة تملـك الحـل الأمثـل لهـذه القضيـة، وهـي في ذلـك تتماهـى مـع مضامـين الخطـاب المسـيحي التقليـدي.

ولا تغفـل القنـوات الدينيـة الشـيعية الاشـتباك مـع التيـارات السـنية، وبالـذات الوهابيـة منهـا الـتي تجعلهـا في خطابهـا النمـوذج الفاشـل للإسـلام، وهـو النمـوذج الـذي يتخبـط في التناقضـات الفكريـة والمذهبيـة التاريخيـة، الـتي لا تصمـد أمـام مـا يقدمـه الخطـاب الشـيعي مـن حجـج وأدلـة، وبذلـك يجعـل الخطـاب الشيعي المرجعيـة الدينيـة الإيرانيـة، هـي مركـز العالـم؛ تتحكـم في مصدريـة الحـق المطلـق، ليـس في الفضـاء الديـني الإسـلامي فحسـب، بـل في العالـم كلـه، وكل مـن يخالفهـا أو يختلـف معهـا فهـو خـارج إطـار الحيـاة، ويحـرم مـن كل الحقـوق الطبيعيـة للانخـراط في الدنيـا.

إن الإعلام الديني في أبعاده المختلفة أصبح صناعة تجارية، وبالذات عندما لقي إقبالاً من طرف الشباب

في ظـل التدفـق الرهيـب لخطـاب القنـوات الدينيـة الخاصـة، تتراجـع مكانـة القنـوات الحكوميـة مـن حيـث العـدد ومـن حيـث الكثافـة؛ فهـي قنـوات تنتـج يوميـاً مـن المـواد الإعلاميـة، مـا يجعـل المسـتهلكين يزيـدون نفـوراً منهـا، خاصـة تلـك المـواد الدينيـة الـتي تبتعـد عـن المعايـير الإعلاميـة التقنيـة والفنيـة، وتسـارع إلى تبريـر الواقـع، وتسـعى إلى صناعـة مسـافة كبـيرة بينهـا وبـين المواطـن العـادي، لأن النخـب القائمـة عـلى هـذه

القنوات تفتقد إلى روح المبادرة، وتتجاهل الرصيد التراثي الديني للمجتمع، وتجد نفسها محرومة من إمكانية الاستفادة من المؤسسات الدينية التقليدية.

٥. التخبط الرسمي

إن صناعة الإعلام الديني في الوقت الحاضر، ليست بتلك المهمة السهلة التي يمكن أن تقوم بها أية نخب مهما كانت مستوياتها، وبالذات عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع المخيال الاجتماعي، والنسق النفسي للمجتمع، في ظل التحولات العميقة التي يشهدها الوطن العربي، مما يجعل الإعلام الديني الرسمي، يغرق في أزمة عنيفة ومعقدة نظراً لغياب استراتيجية واضحة لهذا الموضوع من طرف النخب الحاكمة، إضافة إلى ذلك التردد وعدم القدرة على اتخاذ القرار المناسب، وضيق مساحة المبادرة للقائمين على إدارة القنوات الدينية الرسمية، التي تبقى محرومة من القدرات الإبداعية للأجيال الجديدة، وتزيدها الأيام غرقاً في البيروقراطية التقليدية.

تساهم النخب الرسمية في توسيع سيطرة نفوذ خطاب القنوات الدينية، من خلال تكلسها وجمودها وعجزها عن إنتاج خطاب إعلامي مواز، يكافئ تدفق خطاب القنوات الدينية، بل تبدي الكثير من التجاهل وعدم الاهتمام، من خلال أسلوب الهروب والتهرب من مواجهة حقيقية لهذا الخطاب، بالرغم من الإمكانيات المعرفية، ونتائج تراكم تجربة الممارسة الدينية للمؤسسات التقليدية، تمنح الكثير من الفرص لمواجهة حقيقية لمنتوج القنوات الدينية الخاصة، وبالذات تلك النتائج التي تختزنها المنظومة القيمية الاجتماعية في أبعادها التاريخية، المتمثلة في التسامح وفضائل العيش المشترك، وفعالية النسق الاجتماعي والنفسي للمجتمع.

> نلاحظ أن الكثير من رؤوس الأموال غير المنتمية للتيارات الدينية، أصبحت تستثمر في القنوات الدينية، لأن مردودها من الإشهار كبير

٦. رأس المال الديني

يعد التوالد الكثيف للقنوات الدينية، من المميزات العامة للمشهد الإعلامي الجديد الذي يرتكز على التعددية والابتعاد عن الطابع الحكومي، ويتوج حركة صناعة الإعلام بالتدخل المباشر لرؤوس الأموال الذي ترغب في تحقيق معدلات كبرى للأرباح، وعند الابتعاد عن سلوكيات الاتهام للجهات الممولة لهذه القنوات في العالم العربي، نلاحظ أن الكثير من رؤوس الأموال غير المنتمية للتيارات الدينية، أصبحت تستثمر في القنوات الدينية، لأن مردودها من الإشهار كبير، بتفضيل المعلنين من أصحاب السلع الاستهلاكية الذين يفضلون تسويقها عبر القنوات الدينية، على أساس أن هذه القنوات لها جمهور عريض، يتجاوز الحدود، وأن إمكانية تصديقها من طرف المستهلكين متوفرة بدرجة عالية.

يجد الخطاب الإعلامي للقنوات الفضائية نفسه منسجماً مع طبيعة الفرص التكنولوجية الجديدة، التي تتيح له الوصول إلى المستهلكين من خلال منطق العلوية، التي تمتطيها رسالته التي يصر على أنها سماوية، ومن خلال الفضاء الذي يكثف القدسية فيها، ويجعلها مهيمنة على الكيان الوجودي للمستهلك، ويحرمه من إمكانية النقد أو المراجعة، وهناك تطابق كبير في المخيال التداولي العام، بين الرسالة الإعلامية والتدفق الإعلامي للقنوات الدينية، وبين المسار التاريخي لمفهوم

الوحي والتوجيهات الغيبية، التي تسهل كثيراً عمليات الاستهلاك اليومي لمنتوجات هذه القنوات.

الطبيعة الأساسية، والخاصية المميزة لخطاب القنوات الدينية، تبرز في الإصرار المتواصل على اعتماد الصوابية المطلقة، والامتلاك الكلي للحقيقة والإقصاء المطلق لكل الآراء ووجهات النظر المختلفة الأخرى، ليس في المنظور العام، وإنما في الإطار الذاتي للمنظومة الدينية نفسها، وحتى في الاتجاه والمذهب الواحد، فكل رأي أو وجهة نظر مخالفة، تندرج في سياق الباطل الشنيع، الذي يجب تجنبه والابتعاد عنه وازدراؤه، والمسارعة إلى محاربته وإزالته وصاحبه من الوجود، وهو الأسلوب الذي يكرس الأحادية والتعصب الشديد للموقف والتزمت في اعتناقه، والتطرف في ممارسته من خلال المزج التعسفي بين الرأي ووجهة النظر، وبين المصدر المنتج له، وتأتي بعد ذلك جهود إزالة عمليات التأويل وإلصاق المصدر مع منتوجاته ومنحوتاته الفكرية والثقافية والاجتماعية. وإن هذا الاسلوب معتمد من طرف الخطاب الديني بصفة عامة، إلا أن نتائجه المثمرة تبدو لأصحابه أكثر أهمية في المجال الإعلامي وخاصة في أبعاده السلوكية.

٧. آفاق المستقبل

لقد تراجعت حركة النقد العقلاني في الوطن العربي، بشكل كبير، وأصبح تعاطي النخب مع التيارات الدينية، صدامياً، وذلك ما يشكل الفرصة التاريخية لهذه التيارات، لكي تحقق المزيد من الانتصارات، لأن المجال الصدامي هو مناخها الأفضل الذي تحبذه وتنجز فيها انتصاراتها، مستعينة بالمخيال الشعبي العام، ومخزونات تصوراته عن مفاهيم الدين والتدين، وقد برز ذلك في المجال الإعلامي بصفة أكبر، عندما جعلت التيارات الدينية كل ثقلها في الرهانات الإعلامية، ودخلت إلى المجال الخاص للمواطن، جاعلة من خطابها المقابل الندي والمتعالي لخطاب بقية النخب الأخرى، مستعينة بالتبشير الأخروي كمنفذ نهائي لهذا المواطن، الذي تخلت عنه بقية النخب ونزعته من اهتماماتها، وفقدت القدرة على التواصل معه.

سيكون من التحديات الأساسية أمام النخب في المرحلة القادمة، الاشتباك مع الخطاب الديني في الساحة الإعلامية الفضائية، والتي تتطلب الكثير من الوعي بالبنيات المؤسسة لهذا الخطاب الإعلامي، والعمل على التقليل من أخطاره التدميرية على البنية الاجتماعية، التي تهدد بنسف نسق العيش المشترك، ونشر الصراعات الصفرية التي تسعى إلى تجسيد المرجعية الواحدة الرافضة لكل إمكانية التعددية الطبيعية والاختلاف المنطقي في بنية الخلق.

المساحة الفضائية التي ينطلق منها الخطاب الديني في العصر الحديث، تبتعد في مخيال صناعة عن المفاهيم المنبرية التقليدية المتعالية، التي تسعى إلى ممارسة السلوكيات الدعوية، ونشر الهداية للبشرية، التي تقع، حسبها، في أجواء الضلالة، وهو الأمر الذي يتطلب جهوداً وتضحيات تاريخية من رواد هذا الخطاب، في انتظار تحقيق أهدافه الكونية، وما لم يتم الانتباه إلى هذه الأبعاد الكبرى في مرتكزات الخطاب الديني إعلامياً، يكون من الصعوبة الكبرى إمكانية تصور انفراج في مستقبل المنطقة العربية.





بقلم: د. سعيد بحير
باحث مغربي في علم النفس السياسي

الشروط النفسية والتربوية للإعلام الديني في العالم العربي الإسلامي

يعرف العالم المعاصر ثورة كبيرة في مجال الإعلام السمعي البصري منذ نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالي، حيث ظهر كثير من القنوات الفضائية التي أصبحت في متناول الناس من مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية، وأصبح الولوج إلى هذه القنوات الفضائية سهلا، وخصوصا من طرف الأطفال والشباب. ومن أهم العوامل التي تجعل الشباب والأطفال يتفاعلون مع هذه الوسائل الإعلامية وينجذبون نحوها هو ما تقدمه من مادة إعلامية غنية بالمثيرات والتشويق والمتعة الفنية، وما تعتمد عليه من تقنيات متطورة في التأثير على السلوك والانتباه والاتجاهات والأفكار.

مُنْذُ بداية ظهورها في القرن العشرين، كانت القنوات الإعلامية تقدم مواد متنوعة رياضية وثقافية وفنية ودينية وترفيهية، ومع الوقت ظهرت قنوات فضائية متخصصة في المجال الديني، والرياضي والفني والثقافي. وكانت القنوات الفضائية الدينية في بداية ظهورها تقوم بعرض برامج للوعظ والإرشاد والتوجيه الديني، وكان يطغى عليها الطابع التقليدي، سواء في تقديم البرامج الحوارية، أو المواد التي تتضمن الفتاوى الدينية والإرشاد، ما جعلها عرضة للانتقادات والمعارضة من طرف المثقفين والمربين والسياسيين.

ومن جهة أخرى، أثار انتشار هذه الفضائيات العديد من الأسئلة حول طبيعة الإعلام الديني وأهدافه وفائدته بالنسبة إلى المجتمع، وتأثيره الإيجابي والسلبي على سلوك الناس وأفكارهم واتجاهاتهم. وتباينت وجهات النظر في طرح هذه الأسئلة والإجابة عنها، بين مؤيد لضرورة وجود الإعلام الديني، ومعارض لهذا النوع من الإعلام، وبين من يرى ضرورة تطوير هذا الإعلام وإدخال إصلاحات على تقديم البرامج ومواده.

إن كثيراً من القنوات الفضائية تكرس اغتراب الإنسان العربي المسلم عن قيمه الدينية والثقافية، وتشوه صورة الإسلام والمسلمين

المدافعون على ضرورة حضور الإعلامي الديني في المشهد الإعلامي، يرون بأن هناك تحولاً كبيراً عرفته وسائل الإعلام الغربية الحديثة التي تركز على الترفيه والمتعة المادية، وتغيب فيها القيم الأخلاقية، والفن الراقي الذي يهدف إلى تربية الذوق السليم. إن كثيراً من القنوات الفضائية تكرس اغتراب الإنسان العربي المسلم عن قيمه الدينية والثقافية، وتشوه صورة الإسلام والمسلمين، وتعمل على تضليل الرأي العام بمجموعة من المغالطات والأكاذيب عن الدين الإسلامي وحياة المسلمين. وهكذا، وجب ظهور



هذه القنوات لكي توضح هذه الحقائق، وتعبر عن وجهة النظر الأخرى التي هي غائبة عن المجتمعات الغربية، وتساهم في توعية المسلمين.

أما المعارضون لوجود الإعلام الديني، فيعتقدون أن الإعلام الديني في الوقت الحاضر، أصبح في كثير من القنوات الفضائية يعتمد على ترويج أفكار أيديولوجية سياسية وعقائدية أو مذهبية. وما دام الفكر الديني مرتبطاً أكثر بالجانب الوجداني للإنسان، يحاول بعض الفاعلين في الإعلام الديني توظيف هذه الأفكار لكسب قاعدة عريضة من المستمعين أو المشاهدين، وخلق الرغبة أو الطلب على هذه المنتجات الإعلامية، والإقبال على رموز هذا النوع من الإعلام، وهكذا تحول الإعلام الديني إلى خدمة أغراض سياسية ومذهبية بعيدة عن الدين والعقيدة.

إن المواد الإعلامية حسب هذا الاتجاه، تخضع لمقتضيات المنافسة في سوق الإعلام والإشهار، ولمقتضيات توجهات السياسات الدينية. ولذلك، نجد هذه القنوات تعتمد على «منشطين دينيين»، يقومون باستخدام القرآن والموعظة الدينية، والسيرة النبوية استخداما نفعيا لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الناس أكثر من الاهتمام بالمضمون الديني، ولأن الاستقطاب يفترض الإعجاب، فإن المضمون يغلب عليه طابع انفعالي، لا يخاطب العقل بقدر ما يخاطب الوجدان أو اللاشعور.

الإعلام الديني بمثابة مؤسسة للتنشئة الاجتماعية والتربوية تمرر مجموعة من القيم والأفكار، وتعمل على ترسيخ سلوكيات وقواعد أخلاقية

يرى الرأي الثالث أن الحاجة تقتضي تنوعاً واختلافاً في المادة الإعلامية لاختلاف التوجهات، والاهتمامات وتنوع الأفكار والمعتقدات. ولهذا، فكما أن هناك إعلاماً رياضياً وترفيهياً وثقافياً وسينمائياً وفنياً، فلا بد أن يكون هناك إعلام ديني، على شرط أن يحترم كل نوع من هذه الأنواع الإعلامية أذواق الناس ورغباتهم ومعتقداتهم. فالإعلام السينمائي والفني يجب ألا ينشر صورا وأشرطة إباحية تظهر فيه الأجساد عارية وغيرها من الأمور التي تسيء لمعتقدات المشاهد المسلم. كما أن الإعلام الديني لا يمكنه تقديم برامج تشجع المشاهد أو المستمع على التشدد والغلو أو الكراهية للآخر.

وحسب هذا الرأي الأخير، لا بد من مراجعة كل البرامج التي تحيد عن الرسالة الإعلامية النبيلة التي تهدف إلى التثقيف والتوعية والتربية، والعمل على تطوير الخطاب الإعلامي الديني، وخلق برامج جديدة بمناهج وتقنيات جديدة، وجلب منشطين شباب لبحث مواضيع الدين بطرائق عصرية حديثة، وربط قضايا الدين بالواقع اليومي.

وعلى العموم، يمكننا أن نؤكد ميلنا لهذا الرأي الأخير الذي نعتبره قريبا من العقل والمنطق العلمي، ويمكن أن يحقق فائدة كبيرة للمستهلكين للإعلام الديني. لهذا، فإننا سنتخذ هذا الموقف كأساس لعرض بعض الأفكار التي تساعد على تطوير الإعلام الديني بالعالم العربي الإسلامي.

الغرض من هذا المقال، هو التعرف على ماهية الإعلام الديني في العالم العربي الإسلامي، والاطلاع على وظائفه الأساسية، والتطرق إلى الشروط النفسية

والتربوية الضرورية لنجاح الإعلام الديني، والوسائل العملية لتطوير أدوات هذا الإعلام وتجديد برامجه لتكون مفيدة لجميع شرائح المجتمع.

أولا: ماهية الإعلام الديني ووظائفه النفسية والاجتماعية

الإعلام الديني عملية تواصل جمعي بين مؤسسة إعلامية ذات توجه ديني، وبين جماهير واسعة هدفها تقديم مواد إعلامية تتصل بحياة الناس الدينية والاجتماعية. ويستخدم الإعلام الديني عادة وسائل تكنولوجية متقدمة تعتمد شبكات الاتصال، والمعلومات عبر الأقمار الاصطناعية. والإعلام الديني يتفاعل مع الجماهير من خلال رسائل أو أفكار أو خبرات ذات مضامين دينية اجتماعية. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعتبر الإعلام الديني بمثابة مؤسسة للتنشئة الاجتماعية والتربوية تمرر مجموعة من القيم والأفكار، وتعمل على ترسيخ سلوكيات وقواعد أخلاقية.

وظائف الإعلام الديني

يهدف الإعلام إلى تحقيق مجموعة من الوظائف الإخبارية والتثقيفية والتربوية، كما يعمل على إشباع حاجات نفسية اجتماعية، وتوعية الناس حول قضايا سياسية واجتماعية، ومساعدتهم على فهم مشاكلهم، ويجيب على كثير من الأسئلة التي تعترضهم في معاملاتهم اليومية. ومن أهم الوظائف التي يقوم بها الإعلام الديني، ما يلي:

تقديم المعلومات والتحليلات حول مختلف القضايا والمشاكل؛ يهتم الإعلام الديني بتوعية الناس حول المشاكل التي يواجهونها في حياتهم اليومية، والتعليق عليها وتتبع تطوراتها وانعكاساتها على المجتمع، وهذا العمل الإعلامي يؤدي إلى إشباع حاجات الناس النفسية للمعرفة الدينية.

التأثير على سلوكيات الناس واتجاهاتهم؛ الإعلام الديني يقوم بدور إيجابي في توجيه الأفراد وإرشادهم إلى كثير من الأمور التي تفيدهم في حياتهم الاجتماعية، وتمدهم بالتوجيهات الضرورية للقيام بالشعائر الدينية على أحسن وجه، وتحسين علاقاتهم مع الله ومع الآخرين. وتعمل البرامج الدينية على الإجابة على أسئلة الناس المختلفة وإزالة الالتباس على كثير من الأمور الدينية المبهمة في وقت كثرت فيه الفتاوى لغير ذوي الاختصاص في الأمور الدينية، لأن هناك بعض القنوات الفضائية التي تحاول ترويج بعض الأفكار والتصورات البعيدة عن الدين الإسلامي، أو التي تنتمي إلى بعض المعتقدات المخالفة للشريعة، والتي هدفها تغيير آراء الناس واتجاهاتهم نحو أمور حياتهم، أو نشر بعض الأفكار التي تضر بمصالحهم كالشعوذة والخرافات، أو العنصرية والتعصب والكراهية للآخر.

التوعية الدينية والمعرفية؛ الإعلام الديني هو كرسي متحرك للعلوم الشرعية والمعرفية، وقد يتطرق أيضا للثقافة والأدب والفنون الجميلة التي تهدف إلى تربية الذوق وترق بالأخلاق والقيم النبيلة. وكل هذه المواد والمعارف تقدم على شكل أفلام وثائقية وبرامج متنوعة تشبع نهم المتتبعين إلى العلوم والمعارف. لقد أصبحت العلوم الدينية والمعرفية في متناول الجميع على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية؛ فباستطاعة كل فرد كيفما كان سنه أو جنسه أو مستواه الدراسي أن يتعلم ويحصل على المعرفة بأسهل الطرق، وفي أسرع وقت، وبأقل جهد ممكن.

> رسالة الإعلام الديني الجيد تهتم بنشر قيم الإسلام الوسطي المستند على القرآن والسنة

تقوية الاتصال بين علماء الشريعة والجماهير؛ إن الاتصال اليومي للناس مع علماء الشريعة يجعل العلاقة تتقوى بين الإعلام الديني والجماهير المستقبلة، كما يساعد هذا الاحتكاك اليومي المتبادل بين الطرفين على نشر الوعي السليم بالأمور الدينية، وتقوية الثقة في العلماء الذين يمثلون الإطار المرجعي للدين الإسلامي، حيث يشعر الناس براحة تامة في استقبال آرائهم واقتراحاتهم. وعلى العموم، فإن الإعلام الديني يقوم بوظيفة المعلم والمربي، ودور الوالدين من خلال هذه البرامج التربوية والتعليمية وبرامج الأطفال والشباب وغيرها، وتتجاوز أهدافها التعليمية إلى القيام بوظيفة التنشئة الاجتماعية. فالطفل يولد في أحضان الأسرة ويتعلم في المدرسة، وتتولاه وسائل الإعلام وترعاه وتملأ وقته بموادها المتنوعة، وأحيانا تؤثر سلبا على نمو شخصيته وتغيير سلوكه.

ثانيا: الشروط النفسية والتربوية للإعلام الديني

إن نجاح الإعلام الديني يتوقف على مجموعة من الشروط النفسية والتربوية، والتي تتعلق بإشباع الحاجات النفسية الأساسية للأفراد، ومراعاة استعداداتهم لاستقبال الرسائل الإعلامية، واقتناعهم بالأفكار الواردة فيها، ومسايرة قدرات الناس العقلية ونموهم النفسي الذي يساعد على استيعاب مضمون هذه الرسائل. كما يهتم الإعلام



الديـني بانسـجام المـادة الإعلاميـة مـع اهتمامـات النـاس ومعتقداتهـم الدينية والقيـم الإنسـانية، والصـدق في نقـل الوقائع والأحـداث وتحليلهـا، ومحاربـة الانحـراف الاجتماعي والديـني والسـلوكيات المضـادة للمجتمـع، واسـتعمال تقنيـات حديثـة ومؤثـرات جيـدة.

الصـدق في نقـل الواقـع والأحـداث وتحليلها بشـفافية ودون زيـادة أو نقـص، والـتزام الحيـاد التـام؛ فكلمـا كانـت وسـائل الإعـلام الديـني صادقـة في نقلهـا لهـذه الأخبـار والوقائـع كلما اكتسـبت ثقـة النـاس، وأصبحـت ذات مصداقيـة في الأوسـاط الاجتماعيـة. إن المعلومـات والأخبـار الكاذبـة تـؤدي إلى خلـق البلبلـة في أذهـان النـاس، وتأجيـج الـصراع والجـدل حـول كثـير مـن المسـائل الشـكلية والجزئيـات، مـا يخلـق لـدى النـاس التباسـا وتناقضـا ذهنيـا في فهـم الأمـور الدينيـة، والاتجـاه نحـو الزهـد في الدنيـا أو القطـع مـع كثـير مـن مظاهـر الحيـاة الواقعيـة، أو الاتجـاه نحـو التطـرف والتعصـب والعنـف.

العمـل عـلى إشـباع الحاجـات النفسـية والعاطفيـة للنـاس؛ وهـذا ضروري لتكيـف الأفـراد مـع المحيـط الاجتماعـي، وتلبيـة رغباتهـم الاجتماعيـة في التواصـل مـع الآخريـن. فالنـاس عـادة في حاجـة للمعرفـة والاكتشـاف والتعلـم، ويـودون الحصـول عـلى المعلومـات والأخبـار، كمـا أنهـم في حاجـة إلى الأمـن النفسي والاجتماعـي في مجتمـع مـليء بالمخاطـر والمشـاكل. ومـن جهـة أخـرى، يجـب ربـط الحديـث عـن العبـادات والشـعائر بالمتعـة الشـخصية؛ فالصـلاة لهـا منافـع جسـمية ونفسـية تحسـس الفـرد بالارتيـاح، والصـوم هـو تربيـة للنفـس وتدريـب للجسـم فيـه فائـدة كبـيرة للنفـس والجسـم.

مراعـاة القـدرات العقليـة للنـاس واسـتعداداتهم النفسـية؛ القـدرات العقليـة ذات أهميـة كبـيرة في اسـتيعاب الرسـالة الإعلاميـة وفهمهـا، وإدراك محتوياتهـا. فكلمـا كانـت الرسـالة الإعلاميـة سـهلة وبسـيطة في التنـاول والتحليـل، كلمـا كانـت أقـرب لأذهـان النـاس وعقلياتهـم ومسـتوى فهمهـم. كمـا أن تعامـل النـاس مـع هـذه الرسـائل يختلـف مـن شـخص لآخـر حسـب قـدرة الفـرد عـلى الاسـتيعاب والفهـم والإدراك.

التركيز على اهتمامات الناس؛ إن نجاح العمل الإعلامي يعتمد على مراعاة اهتمامات المستقبلين للرسالة الإعلامية وميولاتهم؛ فكلما كانت الرسالة الإعلامية متناسبة مع اهتمام الناس، كلما حازت على رضا المستقبلين لها. كما أن قوة هذه الرسالة واستنادها إلى قواعد منطقية تجعلها تؤثر بسهولة في سلوك الناس واتجاهاتهم الشخصية. إن الرسائل الإعلامية ينبغي أن تراعي الجنس والسن والمستوى الدراسي؛ فاهتمامات النساء تختلف عن اهتمامات الرجال واهتمامات الأطفال ليست هي اهتمامات الكبار.

ترسيخ القيم والمعتقدات الدينية الوسطية؛ رسالة الإعلام الديني الجيد تهتم بنشر قيم الإسلام الوسطي المستند على القرآن والسنة، ونشر قيم الحب والعطف والتسامح بين الناس، ونبذ العنف والتعصب؛ الحذر من الخوض في المفاهيم التي تكتسي حساسية خاصة كالجهاد والتصوف والزهد والغيب والمعجزات والخوارق التي قد تصيب الأطفال والشباب بالذهول والدهشة، أو الاستغراب وقد تكون لها آثار سلبية على حياة الناس.

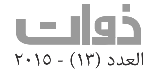
محاربة الانحراف الاجتماعي والديني والسلوكيات المضادة للمجتمع؛ يهتم الإعلام الديني بتوعية الناس حول مشاكل الانحراف الاجتماعي والديني، وينشر المعلومات والحقائق حول أخطار الشعوذة والتفكير الأسطوري والأعمال السحرية، وذلك بإعطاء معلومات صحيحة وصادقة عن هذه المواضيع وتحليلها بكيفية علمية منطقية، وبيان أخطارها على حياة الناس ومخالفتها لتعاليم الإسلام.

استعمال تقنيات حديثة ومؤثرات جيدة؛ إن قوة الإعلام وفعاليته في التأثير على الجماهير ترتكزان على مجموعة من الوسائل العلمية التي تساعد على تمرير الخطابات والأفكار، وإقناع الناس بمضمون هذه الرسائل. ولهذا، فإن اختيار مضامين واضحة وقوية تساعد على جلب انتباه المشاهدين، كما أن استخدام وسائل وتقنيات جيدة يساهم في التأثير الإيجابي على سلوك الناس. وللإشارة، فإن استخدام هذه التقنيات الحديثة هو الذي جعل المؤسسة الإعلامية تتفوق على المؤسسات الاجتماعية الأخرى، كالأسرة والمدرسة وغيرها. ففي الوقت الحاضر، تراجعت سلطة الوالدين كثيرا عن الماضي، نظرا لظهور وسائل الإعلام الحديثة التي أصبحت تحتضن الطفل والمراهق لفترات طويلة، يقضيها مع التلفزيون والأنترنيت، نظرا لانبهاره بهذه التقنيات الجديدة التي تحقق له المتعة، ويجد فيها ضالته، لأنها تخاطبه بأسلوب بسيط وواضح وتراعي مستواه العقلي ونضجه الانفعالي.

المراجع:

بحير سعيد
٢٠١٢، السيكولوجي سلسلة الاستشارة السيكولوجية والمساعدة التربوية.
التحليل السيكولوجي للذات السياسية.
العدد الثالث، مطبعة طوب بريس، الرباط، المغرب.

حمزة عبد اللطيف
١٩٧٨، الإعلام والدعاية
دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، القاهرة.



خليفة عبد اللطيف محمد
١٩٧٧، سيكولوجية الاتجاهات.
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

فيصل عباس
١٩٩١، التحليل النفسي للذات الإنسانية: النظرية والممارسة.
سلسلة التحليل النفسي الفرويدي.
دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان.

فيصل عباس
١٩٩١، التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة.
سلسلة التحليل النفسي الفرويدي.
دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان.

ريشتي جيهان أحمد
١٩٧٨، الأسس العلمية لنظريات الإعلام.
دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.

رزق الله رالف
١٩٩٠، «التلفزيون والأطفال التسرب الأيديولوجي من خلال الصورة»
في ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة ص ٢٤٧

مصطفي حجازي ومجموعة من الاختصاصيين
١٩٩٠، «ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة»
منشورات المجلس القومي للثقافة العربية،
الرباط، المغرب.

فروم إريك
١٩٧٩، الدين والتحليل النفسي.
ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة.

شاكر عبد الحميد
٢٠٠٥، عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات،
عالم المعرفة، عدد ٣١١، يناير ٢٠٠٥
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

شاكر إبراهيم
١٩٧٥، الإعلام ووسائله، ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية،
مؤسسة آدم للنشر والتوزيع، القاهرة.



الخبير الإعلامي المغربي يحيى اليحياوي لـ«ذوات»:

معظم الفضائيات العربية الدينية تخدم أجندات سياسية

حاوره: عيسى جابلي

قال الدكتور يحيى اليحياوي، إن أسباباً كثيرة أدت إلى بروز الإعلام الديني العربي منها ما هو موضوعي، مثل الثورة التكنولوجية التي حررت الإعلام؛ وتزامن «الطفرة التكنولوجية» مع ما يسميه «انفجار الهويات الطائفية والمذهبية والعرقية واللغوية؛ ومنها ما هو ذاتي من قبيل بروز رؤوس أموال طائلة رأت في مجال الإعلام استثماراً مربحاً، وغيرة مؤسسات وأشخاص على دينهم رأوا أن الحل يكمن في بعث قنوات دينية تصرف صورة يرونها معتدلة عن الإسلام للرد على ما اعتبروه استهدافاً للإعلام.

وأكد الدكتور اليحياوي في حوار مع مجلة «ذوات»، أن هذا النوع من الإعلام يسيطر عليه البعد المذهبي الذي «تحكمه خلفيات تاريخية أو سياسية وبينهما الخلفية المذهبية». ويتنازعه في ذلك موقفان: إما الدفع نحو التقريب والاعتدال أو الدفع نحو الفتنة عبر اعتماد «منطوق الفتاوى».

أما من حيث المضامين ومدى ملاءمتها للواقع، فقد رأى الدكتور اليحياوي أن العديد من القنوات «لا ترى واقع ومشكلات العالم العربي الإسلامي إلا من منظورها الطائفي أو السياسي أو المذهبي»، وما سوى ذلك يقدم خطابا «تسكينياً مهدئاً، مطمئناً ومحايداً».

ودعا الدكتور اليحياوي إلى ضرورة اعتماد المصادر المشتركة (القرآن والسنة) واعتبار ما سوى ذلك «أحداثاً سياسية مرت ولم يعد لها من أبعاد عملية على مستوى واقعنا المعيش». وأضاف أن أغلب مقدمي البرامج الدينية على هذه الفضائيات ليس لهم التأهيل الكافي، وأنهم ينزعون إلى اعتماد الخطاب الوعظي الإرشادي الذي سرعان ما يتحول إلى خطاب أبوي.

وقال الدكتور اليحياوي، إن الإعلام الديني، خصوصاً الحكومي منه، إنما يخدم نظاماً سياسياً ويضفي عليه الشرعية، وأن فضائيات عديدة قد أنشأتها أحزاب سياسية

ومولتها، وهي أحزاب «طائفية المرجعية مذهبية المنحى».

هذا، وأكد الدكتور اليحياوي أن السبيل لإنجاح الإعلام الديني هو العمل على محورته حول القيم المشتركة والأخلاق السامية، كي يدفع نحو المحبة والتعايش والسلام.

والدكتور يحيى اليحياوي هو كاتب وباحث مغربي، خريج كلية الحقوق والاقتصاد بجامعة محمد الخامس بالرباط (دكتوراه في التدبير الاستراتيجي للمنظمات)، خريج المدرسة الوطنية العليا للبريد والاتصالات والفضاء بباريس بدرجة متصرف، أستاذ التعليم العالي زائر سابقاً بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط (مادة: العولمة وقضايا الإنسان المعاصر)، أستاذ التعليم العالي زائر (حاليا) بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس بالرباط (مادة: مدخل إلى اقتصاديات المعلومات والمعرفة). حاصل على جائزة المغرب الكبرى للكتاب حول كتابه «الاتصالات في محك التحولات» عام ١٩٩٦. كرمته الجمعية الدولية للمترجمين العرب عام ٢٠٠٧ عن مجموع أعماله. حاصل على وسام التقدير من الجمهورية الجزائرية تقديراً لمجهوداته في خدمة الثقافة العربية.

*** ما أسباب تكاثر القنوات الفضائية الدينية في العالم العربي (مسيحية أم إسلامية)؟ وهل تعتقدون أن تكاثرها علامة صحية في مجتمع ما أم العكس؟**

ثمة مجموعة من الأسباب في ذلك، البعض منها موضوعي خالص، فيما الأسباب الأخرى ذاتية صرفة، أو لنقل مساعدة:

- أول معطى موضوعي في هذا الباب، يتمثل في الثورة التكنولوجية التي طالت ميدان الإعلام والمعلومات والاتصال، وطالت بجريرة ذلك كل الصناعات الثقافية التي تدور في فلك هذه الثورة، من مكتوب ومقروء ومسموع، بكل أنواعه وأشكاله وأحجامه. ولذلك، فإن الطفرة التي طالت مجال الإعلام الفضائي هي سليلة الطفرة الأولى، وتحديداً الفرع المقتني ضمنها للأقمار الصناعية ذات البث التلفزيوني العابر للحدود.

ميزة هذه الثورة، أنها حررت ميدان الإعلام والمعلومات والاتصال من إكراه الندرة الذي لطالما كان رديفاً للتقنيات التناظرية، والتي لم يكن من الممكن في ظلها إرسال أكثر من قناة تلفزيونية عبر حامل واحد. الثورة الرقمية التي ظهرت على أنقاض هذه التقنيات التناظرية، تجاوزت على هذا الإكراه، فبات بإمكان حامل واحد أن يفرز العشرات من القنوات التلفزية، وبجودة عالية، ويغطي بالنتيجة فضاءات جغرافية واسعة، لم تكن تقنية البث التقليدي قادرة عملياً على إدراكها.

هذا معطى تقني خالص، لا يسمح المجال هنا للتفصيل فيه. لكن المهم أن هذه الثورة التكنولوجية (الرقمية بلغة المهندسين)، هي التي مكنت من استنبات العشرات من القنوات الفضائية، ووسعت من سعة «السواتل»، ودفعت العديد من الدول إلى إطلاق أقمار خاصة بها لغاية الاتصالات، ولغايات البث التلفزيوني على وجه التحديد. المحصلة أن المنطقة العربية، شأنها في ذلك شأن معظم مناطق

وجهات العالم، قد ركبت ناصية هذه الثورة، فأطلقت لها أقمار صناعية إقليمية أو وطنية، أو عمدت إلى امتطاء ناصية أقمار دولية، لاستنبات فضائيات كانت عمومية عامة في البدء، ثم ولجت ميدان التخصص في ما بعد، كما الحال مع الفضائيات الدينية.

تزامنت الطفرة التكنولوجية مع بداية انفجار الهويات الطائفية والمذهبية والعرقية واللغوية التي اشتدت مع تقدم مد العولمة

_ ثاني معطى موضوعي، هو تزامن هذه الطفرة التكنولوجية مع بداية انفجار الهويات الطائفية والمذهبية والعرقية واللغوية التي اشتدت مع تقدم مد العولمة، ثم احتلال العراق في ما بعد، ثم قدوم الربيع العربي منذ بداية العشرية الثانية من هذا القرن. قد لا يكون بين الظاهرتين علاقة سببية من نوع ما، لكن ثمة بكل الأحوال تزامنا لا بد من الانتباه إليه، وإلا فكيف نفسر هذا العدد الهائل من القنوات ذات الطبيعة المذهبية (الشيعية أو السنية) أو العرقية أو الباثة بهذه اللغة المحلية أو تلك؟ ثم إذا لم يكن الأمر كذلك، فما السر في انتشار فضائيات ذهب بها «الطموح» لحد الادعاء الصارخ بالخصوصية، وهي لا تزال ضمن نطاق الدولة الواحدة، أو تتنكر للتراث المشترك مقابل الدفع بالهوية الذاتية أو التاريخ «المستقل»، وقس على ذلك؟ هذا معطى أساسي كذلك، لا بد من مساءلته لفهم سياق بروز هذه الفضائيات، العام منها كما المتخصص وضمنها الفضائيات الدينية.

أما المعطيات الذاتية، فتتمثل تحديداً في توافر رؤوس أموال، لا سيما بالخليج، بدا لها الإعلام الفضائي مجال استثمار مربح، وفضاء واعداً لتدوير هذه الأموال. لذلك عمد القطاع الخاص، أشخاصاً ومؤسسات، إلى ولوج هذا المجال، لا سيما وأن التكلفة من بين ظهرانيه ليست مرتفعة، وتقنيات العمل متوفرة بكثرة بالسوق العالمي. هذا أمر يسري على فضائيات الغناء والسينما، ويسري أيضاً على الفضائيات ذات النكهة الدينية، أو الدينية الصرفة في برامجها وموادها وخطها التحريري العام.

المعطى الذاتي الثاني، ويتمثل في ما نتصور، في غيرة العديد من المؤسسات والأشخاص الذاتيين على دينهم، فعمدوا إلى خلق فضائيات، إما بغرض تصريف خطاب ديني يبدو لهم أنه هو المفروض تقديمه والدفع به، أو بغاية الرد على ما اعتبروه استهدافاً للإسلام والمسلمين، فجاءت القنوات إياها كأداة لتفنيد ذلك، أو تقديم صورة عن الإسلام والمسلمين بهذه المواصفات الإيجابية أو تلك.

أما عن السؤال عن صحية هذه الظاهرة من عدمه، فأنا أزعم وباختصار شديد هنا، بأن العبرة في التكنولوجيا هي بالاستعمال والاستخدام، وليست بركوب الموجة لاعتبارات قد لا تكون دائماً سليمة. أعني أن قدوم هذه الفضائيات قد ملأ إلى حد ما فضاء كان فارغاً، ومنها من قدم رسالة غاية في الأهمية، لكن العديد منها للأسف بقي حبيس حسابات سياسية، أو مذهبية أو عقائدية، فتحولت قنواتهم إلى منابر للفتنة والتشدد والغلو، عوض أن تكون وسيلة لتقديم الدين الإسلامي كقيم وأخلاق وسلوك ومنظومة فعل وتفاعل مع الذات ومع الآخر.

*** كيف تقيمون طبيعة الخطاب الذي تعتمده هذه القنوات؟ هل هو خطاب داع إلى التسامح والمحبة، أم هو تحريض على الاقتتال الديني (بين أتباع الأديان المختلفة) والطائفي (سنة وشيعة مثلاً)؟**

هذا سؤال أفردت له دراسة موسعة ستصدر قريباً عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، لكنه ما دام قد طرح، فبالإمكان اختزال الجواب في الجوانب الثلاثة التالية:

أولاً: قليلة هي القنوات الدينية، سواء الباثة بداخل هذا البلد أو ذاك، أو من المهجر، التي لا تعبر بشكل من الأشكال عن المنظومة الدينية التي تتبناها هذه الدولة أو تلك، أو الشخص المنتمي لهذا المذهب أو ذاك. طبيعة الخطاب هنا لا تتغير كثيراً، إذ (باستثناء القنوات المسيحية التي لها خطاب شبه موحد) يبقى البعد المذهبي هو الخيط الناظم لهذه الشبكة البرامجية أو تلك: للقنوات السنية خطابها

الخاص، وللقنوات الشيعية نبرة خطابها الخاص. قد يكون ذلك واضحاً جلياً، وقد يكون متضمناً بالشبكة العامة، متدثراً خلف هذا البرنامج الديني أو ذاك، وهو أمر يصح على القنوات الدينية العامة كما على القنوات الدينية المتخصصة، الفارق هنا في الدرجة وليس في الطبيعة.

ثانيا: بطرفي المعادلة، فضائية سنية أو شيعية، نجد أن الخطاب غالباً ما تحكمه خلفيات تاريخية أو سياسية وبينهما الخلفية المذهبية. من هذه الزاوية، قد نجد من الطرفين من ينشد التقريب بين المذاهب، ويدفع برؤية وسطية ومعتدلة تخفف من الاحتقان وتبحث عن مكامن ونقط الالتقاء، كما نجد من يدفع بالمسألة إلى حدود التحامل والتحريم والتكفير والإخراج من الملة.

نحن إزاء خطاب مرتكز على ترسبات تاريخية معروفة، لكنه بات القاعدة مع انتشار الفضائيات المذهبية، عوض أن يكون الاستثناء، لا بل إنه تأجج في إطار مسلسل من القول ورد القول شارف على بلوغ مستوى الفتنة. عندما يجد ذات الخطاب حاضنة سياسية معتبرة على الأرض، ومشاهدين حقنوا بما فيه الكفاية بمضامينه، فإن النتيجة عملياً لا يمكن إلا أن تكون عبارة عن قتل على الهوية والمذهب، فتصبح الفضائيات الدينية أداة تعصب وتقوقع، عوض أن تكون أداة تسامح وانفتاح على الآخر.

ثالثا: ما يؤجج نار الفتنة والاحتراب عوض التسامح والتقارب، هو لجوء العديد من الفضائيات إلى تقديم برامج ترتكز على منطوق الفتاوى. الخطير في الأمر أن بعض الفضائيات لا تدرك أن الفتوى أمر جلل، اللعب بها لاعتبارات مذهبية أو لتبرير سلوك سياسي، هو كاللعب بالنار أو أكثر. ولذلك، فإن تساهل هذه الفضائيات في استقدام «شيوخ» للإفتاء في هذه المسألة أو تلك قد يكون من شأنه الإضرار ليس فقط بالإسلام، بل وأيضاً بالمسلمين. والأمثلة في ذلك كثيرة يضيق الحيز لاستحضارها هنا.

بالتالي، فإن العديد من هذه الفضائيات لا تدرك خطورة الكلمة والصوت والصورة التي تؤثث على أساسها خطابها، وعندما نعلم بأن الذين يدفعون بهذا الخطاب هم شيوخ و«رجال دين»؛ أي لا تكوين إعلامي لهم، فإن المصيبة ستعظم.

قليلة هي القنوات الدينية، سواء الباثة بداخل هذا البلد أو ذاك، التي لا تعبر بشكل من الأشكال عن المنظومة الدينية التي تتبناها هذه الدولة أو تلك

*** من حيث المضامين التي تقدمها: أين هذه القنوات من الواقع العربي الإسلامي ومشكلاته؟ هل ترون أنها مسايرة لما يطرحه هذا الواقع من أزمات؟**

لنقل باختصار هنا أيضاً، بأن الملاحظ على العديد من هذه القنوات الدينية أنها لا ترى واقع ومشكلات العالم العربي والإسلامي إلا من منظورها الطائفي أو السياسي أو المذهبي، فتقرؤه على ضوئه وعلى ضوئه فقط. وهذه حقيقة بالإمكان التأكد منها من خلال متابعة برامج العديد من القنوات العراقية أو ببعض بلدان الخليج العربي، وبالإمكان التثبت منها أيضاً، من خلال طبيعة الفتاوى التي تقدمها هذه الفضائية أو تلك.

لو أضفنا إلى ذلك تقوقع العديد من هذه الفضائيات حول مجالها الخاص، لا سيما في ظل تهاوي دول «الربيع العربي»، وتزايد مد حركات الإرهاب المتدثرة بالدين، فسيتضح لنا كيف أن خطاب الفضائيات إياها بات متمحوراً يوماً عن يوم حول واقع هذه الدولة أو تلك، دونما إيلاء اعتبار كبير لما يجري بباقي الدول. يبدو الأمر هنا كما لو أن هذه الفضائيات قد أضحت عنصر حمائية مذهبية عوض أن تكون أدوات لطرح ومحاولة معالجة قضايا الأمة كما يقال.

من جهة أخرى، فلو تأملنا في خطاب الدعاة الجدد، والناظم للبرامج الدينية لهذه الفضائيات، فسنراه بعيداً كل البعد عن معالجة هذه القضايا والمشاكل؛ فهو يتحدث عن كيفيات تهذيب السلوك، وأساليب التمتع بالحياة العائلية، وطرائق جمع المال وبذل الجهد والاهتمام بالذات الفردية، والابتعاد عن السياسة وتعويضها بالاقتراب إلى الله... إلخ. هذا الخطاب هو أبعد ما يكون عن مشاكل الشباب وعطالتهم، عن قضايا الديموقراطية وحقوق الإنسان،

عن إشكالية الاستفراد بالسلطة والثروة من لدن هذه الجهة أو تلك، وقس على ذلك.

القنوات الدينية لا ترى واقع ومشكلات العالم العربي والإسلامي إلا من منظورها الطائفي أو السياسي أو المذهبي

بالمحصلة، وهذه مسألة تعرضت لها أيضاً بالدراسة المذكورة، يبدو أن خطاب هذه الفضائيات إنما هو خطاب يقدم الدين الإسلامي في إطار المرجعية المذهبية للدولة حيث تبث الفضائية، أو يقدم خطاباً تسكينياً، مهدئاً، مطمئناً ومحايداً. وهذا أمر قد يتماهى معه بعض من المشاهدين، لكنه لا يمكن أن يقبل به من له حد أدنى من الغيرة على واقع العالم العربي والإسلامي والتشرذم الذي بات عليه، لا بل والتقسيم الذي لا قدر الله، سيكون مجاله بالقادم من أزمان.

*** تشتغل هذه القنوات تحت يافطة الدعوة والتبشير، وذلك يخفي تصوراً ضمنياً تصدر عنه هذه الخطابات؛ هو قصور الإنسان وغرقه في الضلالات وحاجته إلى من يدله على الله ويساعده على الخلاص. ما رأيكم في هذا التصور؟**

بعض المسلمين بحاجة إلى توسيع معرفتهم بدينهم، وهذا أمر لا غبار عليه. الأداة الإعلامية القطرية، فما بالك لو كانت عابرة للحدود، هي أداة ناجعة في ذلك، وهذا مثبت بالدراسات النظرية وبالتجارب الميدانية أيضاً، لكن شريطة أن تكون الرسالة مدروسة بدقة والغاية واضحة، وطبيعة الجمهور المستهدف محددة.

بالمقابل، فأنا مثلاً لا أرى مانعاً من الاستماع إلى رجل دين شيعي يحدثني عن نظرته للإسلام، وعن القيم التي يدافع عنها، وعن سوء الفهم الذي يتعرض له الإسلام من لدن أبنائه ومن لدن الأغيار، وهكذا. لكني لا أبدي استعداداً للاستماع إليه، وهو يشتم الخلفاء الراشدين، أو يتحامل على زوجات الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو يكفر هذا الصحابي أو يخرج ذاك من الملة. هذا أمر لا أطيقه والحالة هاته، ولا أطيقه في أي سياق آخر. ما الذي يفيدنا اليوم في دعوة أو تبشير تقول بأن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان أولى بالخلافة من أبي بكر أو من عمر أو من عثمان رضي الله عنهم جميعاً؟ وما الذي يقدم دعوة أو تبشيراً يراهن على الدفع بتشييع هذا البلد أو ذاك؟ ولما لا ندعو إلى نماذج في التنمية والخروج من التخلف بالتعاون المشترك وتقاسم الخبرات والثروات ومواجهة الاستهداف الذي تتعرض له البلدان العربية والإسلامية، ونبقى حبيسي مجادلات لم تعد ذات فائدة، حتى وإن كانت الحقيقة التاريخية تثبتها؟

أتصور أنه كائنة ما تكن الخلافات، فإن المفروض أن تدفع الفضائيات بوسطية يكون الاحتكام فيها للقرآن الكريم (وهذا لحسن الحظ العنصر الجامع منذ ١٤ قرنا) ولأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، واعتبار ما سوى ذلك أحداثاً سياسية مرت، ولم يعد لها من أبعاد عملية على مستوى واقعنا المعيش.

*** هل ترون أن لمقدمي برامجها الكفاءة الضرورية، من حيث تكوينهم وأساليبهم ومستوى خطاباتهم، للقيام بمهمة خطرة كهذه؟**

العمل الإعلامي مهنة وحرفة وتمرس ومسؤولية وأخلاقيات. لذلك، نرى في الغرب مثلاً أنه لا يسمح بتقديم البرامج الحوارية المباشرة إلا لمن تتوفر فيه هذه العناصر، ويكون محتكماً إلى تجربة طويلة في العمل الإذاعي أو التلفزيوني. الكفاءة هنا عنصر ضروري، لكنه غير كافٍ، إذا لم يتم تعضيده بالتجربة والتمرس والتشبع بقيم وأخلاقيات المهنة، وهي معروفة ولا مجال للغوص فيها هنا.

أداء مقدمي البرامج الدينية في الفضائيات العربية، يثير القول التالي:

أولاً: إن معظم هؤلاء المقدمين، أو منشطي البرامج، أو القائمين على البرامج الحوارية الدينية، لا يملكون التكوين الكافي لذلك، أعني التكوين الديني الذي يمكنهم من مناقشة هذا «الشيخ» أو محاورة هذا «العالم في الدين». قد يكونون خريجي معاهد متخصصة عليا، تعطيهم الكفاءة التقنية، لكن هذا لا يعطيهم القدرة للغوص في القضايا العقائدية أو

الشرعية، فما بالك أن يمنحهم القدرة على إدارة نقاش تكون مادته الشريعة أو مقاصد الشرع مثلاً. وهذا عيب المعاهد وليس عيب مقدم هذا البرنامج أو ذاك.

ثانياً: عندما يتم تكليف «رجل دين» بالإشراف أو تقديم برنامج ديني بهذه الفضائية أو تلك، فإن الرجل قد يكون خبيراً بمجاله، لكنه قد لا يستطيع تصريف خطابه بلغة إعلامية تلقى القبول أو الاستلطاف من لدن المتلقي، إذ قد يوغل في تفاصيل لا يدركها إلا أهل الاختصاص، فيكون من نتيجة ذلك انصراف الغالبية العظمى من المتلقين عن برنامجه، وقد تكون طريقة إلقائه غير مهنية (بحكم غياب الخلفية الإعلامية لديه)، فينفر الجمهور من «حلقته»، وقد لا تسعفه كفاءته في مجاله إلى ترجمة ذلك في لغة إعلامية بسيطة، سلسة، سهلة على الهضم، غير منفرة في شكلها أو في بعض مضامينها وهكذا.

ثالثاً: غالباً ما يكون الخطاب بالشاكلة التي قدمناه بها أعلاه، خطاباً وعظياً وإرشادياً وتوعوياً، ولربما تلقينياً في بعض الفضائيات. لكن محدوديته تكمن في كونه سرعان ما يتحول إلى خطاب أبوي، أحادي الجانب، فوقي وعمودي، ولكأني به يمارس نوعاً من الوصاية الدينية على المتلقين، لا سيما وأن الفرد المسلم يدرك جيداً ألا وساطة بينه وبين ربه. الخطاب من هذا النوع خصوصاً في غياب التفاعلية، يشي بنوع من التسلط الديني الذي قد لا يستسيغه المتلقي أو يقبل به دائماً.

أعتقد بأن جانب التكوين أساسي ومحوري في هذه الفضائيات، ليس فقط في ما يخص الإعلاميين، بل وأيضاً في ما يتعلق «بالدعاة التلفزيونيين».

*** يرى بعض الملاحظين أن قنوات دينية كثيرة، إنما تخدم أجندات تتجاوز ما هو ديني واجتماعي إلى ما هو سياسي؛ ما رأيكم في هذه الأطروحة؟**

ليس لدي أدنى شك في ذلك، وقد قدمت بعض عناصر الجواب في ما سبق. لكن دعني أضيف العناصر الثلاثة التالية:

إن معظم المقدمين، أو منشطي البرامج، أو القائمين على البرامج الحوارية الدينية، لا يملكون التكوين الكافي لذلك

الأول: أن العديد من الفضائيات الدينية، لا سيما الفضائيات العامة (أي المملوكة من لدن الدولة) قد أنشئت لخدمة أجندة دينية/سياسية؛ أي شرعنة السلوك السياسي لهذا الحاكم أو ذاك بخطاب ديني مباشر بهذا البرنامج الحواري أو ذاك، أو بمادة دينية غير مباشرة كما الحال في الفتاوى التي لا تخرج كثيراً عن ذات الشرعنة.

+ الثاني: أن العديد من الفضائيات الدينية قد أنشأتها ومولتها أحزاب سياسية، طائفية المرجعية، مذهبية المنحى. وهذا واقع يمكن للتدليل عليه الإحالة على عشرات القنوات العراقية التي ظهرت بعد احتلال العراق، ولا يزال جزء منها يشتغل وفق نفس النسقية (الكوثر مثلاً أو فضائية أهل البيت). الغريب في الأمر هنا أن بعض الأحزاب السياسية قد تدعي العلمانية أو تنشد القومية، لكنها تثوي خلف فضائيات تلبس السياسة بالدين أو العكس بالعكس. ونموذج العراق صارخ في هذا الباب أيضاً، ناهيك عن نماذج الفضائيات السنية بدول الخليج، أو ببعض دول المغرب العربي.

الثالث: لو أخذنا نموذج الدعاة الجدد (عمرو خالد وعبد الباقي ومن سار على نهجهما)، فإن الذي سيتضح لنا أن هؤلاء، وهم يقدمون «مادة دينية»، لا يخدمون أجندات سياسية مباشرة، كما الحال بالعراق مثلاً، لكنهم يدافعون، عن قصد أو دونما دراية من لدنهم، عن الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي القائم. وهذه حالة يجب أن ننتبه إليها، لأنهم بقدر ما يطالبون الشباب بالابتعاد عن السياسة، والاهتمام بالشأن الخاص، فهم يدافعون بتحصيل حاصل، على واقع قائم دون أن يسموه بالصريح المباشر.

بالتالي، فأنا أعود وأقول بأن معظم الفضائيات العربية الدينية، العامة كما المتخصصة، إنما تخدم هذه الأجندة السياسية أو تلك، بهذه الطريقة أو تلك، بهذه الدرجة أو تلك.

*** ما علاقة الإعلام الديني بالمجال العام؟ هل هي علاقة تنظيم وإثراء، أم هي علاقة سلطوية تهدف إلى افتكاكه والسيطرة عليه والتحكم به؟**

نسبة البرامج الدينية بالقنوات العامة (أعني غير المتخصصة) ضئيلة للغاية، ولا تتعدى ٦ إلى ١٠ بالمئة كأقصى تقدير. لكنها مرتفعة نسبيا بالقنوات الدينية ومرتفعة أكثر بالقنوات الدينية المتخصصة. ولذلك، فإن نسبة تأثيها للمجال العام متباينة، تباين نسبتها في حجم ما يخصص لها في هذه الفضائية أو تلك.

من جهة أخرى، فأنا من الذين يدعون بأن النظم السياسية في العالم العربي والإسلامي لا تتعامل مع الدين إلا من زاوية سياسية صرفة؛ أي من باب التوظيف السياسي الخالص، أي من باب شرعنة النظام القائم. فالأزهر مثلاً هو جزء من منظومة النظام السياسي في مصر، ونادراً ما يخرج عن طوعه أو عن طاعته، لا بل إن النظام السياسي هو الذي يقوم على تعيين مفاصل هرمه الإداري ويقر ميزانيته، تسييراً وتجهيزاً، وهو الشيء نفسه أو يكاد بالمغرب وبالسعودية وبغيرهما.

العلاقة إذن، وظيفية في ما أعتقد، وقد كانت دائماً كذلك. الجديد الذي يؤكد ما نذهب إليه أن رقابة السلطة السياسية على الشأن الديني قد ازدادت وتقوت، لا سيما في ظل انفجار الحركات «الجهادية»، وبروز روافد دينية جديدة بدأت تزايد على ذات السلطة هيمنتها على الحقل الديني. ولذلك، فأنا أتصور أن مراقبة الدولة (كي لا أقول تضييقها) على الحقل الديني، لن يكون فقط عامل انحسار لهذا الأخير، بل لربما تراجع فاعلوه (خواصَّ وعوامَّ) عن إغناء المجال العام وإثرائه وتوسيعه، بصرف النظر عن شكل وطبيعة هذا الإغناء والإثراء والتوسيع.

*** برأيكم، هل نحن في حاجة إلى إعلام ديني؟ وهل يمكن أن يكون هذا الإعلام هادفا؟ وكيف يجب أن تكون طرائق اشتغاله حتى يكون كذلك؟**

الإعلام الديني، شأنه شأن الإعلام الإخباري والإعلام الرياضي والإعلام الثقافي وغيرهم، هو جزء من الإعلام بوجه عام، لكن خاصيته أنه يشتغل على مجال حساس، يحيل على المقدس وعلى القيم وعلى المشترك العام، وعلى الرمز وعلى الإيمان. ولذلك، فهو مجال يجب تقويته وتعضيده، بالتكوين، بالإطار المرجعي الواضح، بالرسالة الدقيقة والترفع به عن المزايدات السياسية والأيديولوجية التي قد تعصف بكل هذه المستويات.

العديد من الفضائيات الدينية أنشأتها ومولتها أحزاب سياسية، طائفية المرجعية، مذهبية المنحى

أنا أتصور أن إحدى سبل إنجاح إعلام ديني هادف هو العمل على محورته حول القيم المشتركة والأخلاق السامية، وجعله عامل تحفيز وتجنيد عوض تحويله إلى أداة من أدوات الفتنة والاقتتال بالبرامج الموغلة في الغلو، أو بالفتاوى التي تستبيح دم الآخر أو تعمد إلى تكفيره أو إخراجه من الملة، لمجرد أنه اجتهد أو خرج عن الخطوط الحمر التي رسمتها النظم السياسية لضمان الشرعنة الدينية لسلوكها وممارساتها.

هذا مشروع لا أراهن على تجسيده في المدى المنظور، إلا إذا اتفق «أهل العقد والحل» من بين ظهرانينا على استنباته بأرض الواقع قبل نقله إعلامياً بالقنوات الفضائية.

١. سهيلة زين الدين حماد، الإعلام في العالم الإسلامي (الواقع، المستقبل)، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٣

٢. محمد السيد سعيد، حرية الصحافة من منظور حقوق الإنسان، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مصر، ٢٠٠٢

٣. هربرت أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩

٤. محمود علم الدين، تكنولوجيا المعلومات وصناعة الاتصال الجماهيري، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٠

٥. محمد محمود متولي، الإعلام الإسلامي والرأي العام، شركة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٧

٦. عبد الله شحاتة، الدعوة الإسلامية والإعلام الديني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، مصر.

٧. عبد الوهاب كحيل، الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥

٨. مصطفى المصمودي، النظام الإعلامي الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥

٩. Hoover, S., Religion in the Media Age. London: Routledge, ٢٠٠٦

١٠. Meyer, B. And A. Moors, Religion, media and the public sphere. Bloomington, IN: University of Indiana Press, ٢٠٠٥

١١. SOUCHON Michel, «L’Église au filtre des médias», Etudes, no ٤, avril ١٩٩٤

١٢. BRUCE Steve, Pray TV: Televangelism in America, London, New York, Routledge, ١٩٩٠

١٣. KERCKHOVE Derrick, La civilisation vidéo-chrétienne, Paris, Éditions Retz/Atelier Alpha Bleue, ١٩٩٠

١٤. TILLARD Jean –Marie Roger, «Evangélisation et mass media», L’église canadienne, ١er mai, ١٩٨٦

١٥. DUBUC Jean-Guy, Mass media: pour ou contre Dieu, Beauchemin, Montréal, ١٩٧١

١٦. GABEL Emile, L’enjeu des médias, Marne, Paris, ١٩٧١

١٧. RUSZKOWSKI André, Communications sociales et pensée chrétienne, Cahiers d’études et de recherches n° ٩, Office des communications sociales, Montréal, septembre, ١٩٦٨

عمّ تكتبين؟



بقلم : د. مها العتوم
شاعرة وأكاديمية أردنية

سَأَتَحَدّثُ عن كتابة الشعر، عن المرأة حين تكتب الشعر، وعن الشعر وهو يكتب ويُكتب عن المرأة، عن الألم اللذيذ الذي تذهب إليه راغباً، وتتأهب على شرفاته منتظراً وطامحاً.

الكتابة طفل مدلل يحتاج أباً وأماً، أبا ليرفد بالمعرفة والخبرة والتجربة، وأما لتحمل وتلد وتربي الكتابة كأحد أبنائها، ولذا ففي الكاتب الرجل ثمة أنثى، وفي الكاتبة المرأة ثمة ذكر، هذان يقوى حضورهما في الكتابة، وأيهما كتب فسيقرأ ويعرف، ويتزود بالخبرة والعلم والتجربة من جهة، وسيحمل ويلد ويكابد المخاض والولادة من جهة أخرى، ثم سيمضي عمره، وهو يربي نصوصه ويهذبها، ويحسن فيها، حتى إذا أعياه التمليح والتصحيح انصرف إلى ولادة أخرى وفي نيته أن يتلافى فيها أخطاء سابقتها، وأن يقول ما كان يريد قوله ولم يقله، حتى يموت الكاتب أو الكاتبة، كذلك النحوي الذي مات وفي نفسه شيء من «حتى»، وفي روحه ما لو أوتي العمر لقاله وكتبه، وما لو أوتي العافية والصحة لصححه وغير فيه وبدل في بعض مواضعه.. يا للكتابة كم هي معاناة لذيذة، وورطة جميلة.. لا يحملها محمل الجد إلا من عانى وتورط.

> الكتابة طفل مدلل يحتاج أباً وأماً، أبا ليرفد بالمعرفة والخبرة والتجربة، وأما لتحمل وتلد وتربي الكتابة كأحد أبنائها



قلت مرة عن الشعر:

من حلم في أعلى الليل يجيء الشعر،
من حلم ضوئي يسطع ثم يغيب، يجيء
وقد يتأخر، قد يتسلل مثل حرير الفجر
بالأمس رأيت الشعر على نافذتي، ففتحت له
وشممت العطر ونمت
فرأيت حدائق تركض فيها امرأة لا تشبهني
عند الصبح، تمشى فوق يدي الشعر
وأهدى تلك المرأة وردة...

الشعر اشتباه الكلام بالحلم، في المنطقة الملتبسة بين الواقع والمتخيل، إنه مزاج اللغة السحري بين الممكن والمستحيل، ولذلك يحمل الكتاب نبوءات تصدق، ويدعي البعض أن شياطين تزور الشعراء، كل ذلك لأن لحظة الكتابة فيها من اللبس والاشتباه ما لا يستطيع حتى الكاتب نفسه تفسيره. لكن الكتابة اجتهاد في القراءة والاطلاع، وخوض الحياة وتجاربها دون خشية البلل والغرق، ومعاودة النظر والتحكيك والتهذيب للنص المكتوب، حتى يستوي نصا يظن قارئه من شدة سلاسته وسهولته ألا جهد فيه، ويكون الكاتب قد بذل جهدين: الأول في صناعة النص، والثاني في إزالة أثر الصنعة حتى يبدو للقارئ كما بدا.

والكتابة حب، ولا يكتب من لا يحب، الحب الواسع على مفردات الكون جميعها، الحب الذي يخلق ويجدد ويوسع العلاقة بين المبنى والمعنى إلى أقصى وأقسى مدى:

أتعرف ما يفعل الحب بالعطر
يجعله يسترد الحديقة
وتعرف ما يفعل الحب بالورد
يقطر ألوانه في الفراشات
لا فرق بين الفراشة والورد
في الحب
لا فرق بين مجاز الفراش
وورد الحقيقة
وتعرف ما يفعل الحب بالشعر
يخطف بحرا بأسماكه
لجنية في كهوف الكلام
ترى في الظلام
وتهذي:
إذا صدق الموج ننجو
وإن غرق البحر.. أنت الغريقة

لقد بدأت الكتابة، وأنا أتتبع أثر خطى من سبقوني، أحببت الشعر، وحفظت قصائد طويلة للمتنبي وطرفة وأبي القاسم الشابي، وبدأت بالشعر العمودي، وكنت أعي ثقل مسؤولية الكتابة، لأن مجرد النظر إلى تراث العرب الشعري يصيب المبتدئ بالهلع، قامات عالية، وشعر رصين له مقولاته وخطاباته، ونشرت أولى قصائدي في جريدة للطلبة في جامعة اليرموك بعنوان «يوميات حطابة» وفيها أتلمس تعب الشعر والكتابة، وأقرن التحطيب بكتابة الشعر:

> الشعر اشتباه الكلام بالحلم، في المنطقة الملتبسة بين الواقع والمتخيل، إنه مزاج اللغة السحري بين الممكن والمستحيل

غيمي فقلبي ممطر أرقا
روحي ضباب ينتضي أفقا
حطبت كل اليوم في نزق
وركبت موجا عاد محترقا
حتى أقول:
فإذا طوت ذي الشمس رايتها
لتنيمها في حضن من عشقا
تصحو الهموم العاصفات به
عينا ترى إنسانها غرقا
هل بالقوافي ينطوي تعب
للشعر كالتحطيب قد خلقا

لكني وأنا أتتبع خطى الشعراء الكبار، كنت أفتش عن خطوتي وطريقي، كنت أبحث عن كلمة ولو واحدة أقول بها نفسي لا سواي، ليس لأن الشعر الحديث ذاتي، ولكن لأن الشعر طريق وطريقة تخص واحدا/واحدة وتميزه/تميزها عن سواه/سواها، حين يكون الشعر صادقا في التعبير عن صاحبه وعن زمانه وعن مكانه، عن رؤيته المختلفة عن الآخرين للعالم ومفرداته، عما يخصني في هذه اللحظة في الزاوية الصغرى من العالم التي لا يوجد بها سواي، ولذلك حين شققت طريقي لم أنظر إلى أغراض

الشعر العربية الكبرى، ونظرت إلى ذاتي وأغراضها وهمومها التي لا تنفصل بالضرورة عما يدور حولي، أكتب عن الوطن كما أراه: أحب الأردن والطفيلة وجرش، ولكني حين أكتب أفكر أني من صناعة سوف وجبالها وزيتونها وتينها، ومن صياغة إربد وجامعتها وسروها وتجاربي فيها... وأصعب سؤال يوجه لي: عم تكتبين؟ أكتب عما أحس به، وعما يلامس روحي في لحظة ما حتى يدفعني دفعا إلى أقرب قلم وورقة، ولا أدافع عن النساء ولا أومن بالنسوية ولا بجمعيات حقوق المرأة، المرأة هي الإنسان الخاص المقابل للرجل كالوجه الآخر للعملة لا يختلفان ولا يشتبهان، أقرأ كالرجال، وأكتب كامرأة، وأرفض أن تعامل كتابتي كأنها لمخلوق ينبغي التنازل عند الحكم عليه، لا بد أن يقيس التاريخ كتابتي بكتابة الرجال في المستوى الفني والجمالي، وبمشاعر النساء وخصوصية تجاربهن في المستوى الموضوعي، لإربد كتبت:

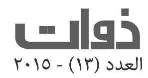
قرب مكتبة الجامعة
في المقاهي القريبة من وجع القلب
من شارع يتمشى إلى اليوم في الدم
شارع إيون
والعابرون عليه إلى اليوم
قد يخدشون دمي
أنت ما زلت حيث تركتك
بين الصديقات والذكريات
التي علمتك الكتابة
أو بدلتك الكتابة بالسرو
ما زال أخضر
ما زلت خضراء
لو يرجع النهر
تسترجعين التدفق في ماء اربد
من لذة صوب أخرى
ومن خيبة صوب أخرى
ومن لحظة تقبضين عليها
ثلاثين عاما
ويفلتها الحبر في اللغة الماكرة
تلك إربد
أم أنت
أم خضة العطر بعد الغياب
ونشوتها الحاضرة
تلك إربد/أنت
من الموت حتى الولادة في الروح والخاصرة

وكتبت عن العمر وسكينته التي تمضي في الجسد والروح، وأنا أقطع الثلاثين وأمضي إلى الأربعين:

لا أعرف الفرق
بين الثلاثين والأربعين
محوت دفاتر عشر سنين
لخطي الرديء عليها
وما زال خطي رديئا
وما زلت أمحو، وأكتب كالآخرينْ
الحياة الكتابة والمحو
والموت فضح الكناية والصحو
واللاكلام المبينْ
لذلك مري من الأربعين بلا لغة
واعبري في المجاز كأنك لا تعبرين
وطيري كان الحياة جناحاك
والضوء بين الحياة وبينك
حتى تري بسقوطك في الضوء
حكمة قلب الفراشة
بين الضلال وبين اليقين
وغني بصوت نوافذ مشرعة للحنين
غني مع الريح
لا فرق.. لا فرق بين الثلاثين والأربعين

إنه ثقل الشعور بالزمن في هذا النص القصير، إن اللافرق الذي أبديه على الصفحة هو الفرق الذي أشعر به وأحاول تبديده، إنه التداوي بالكلام، والعلاج بالشعر، ورأب الصدع بالزمن بخط هذه المصالحة بيني وبين عمري الجديد بقصيدة، أتحدث عن نفسي وعمري، وعن كل امرأة وعن كل رجل يشعر بشجن هذه اللحظة، وهو يعبر من محطة إلى أخرى، ومن عمر إلى سواه، ومن تجربة إلى سواها. كتبت عن المرأة، وهي تحدق في ذاتها وترى النساء اللواتي يتصارعن فيها، وكتبت عن الحب والحرب والليل والحنين والولادة والخذلان، وكامرأة قاربت بين الشعر والتكنيس:

كنست كأم مثابرة في حياتي
زجاجا كثيرا
وجمعته في القصائد
حتى يصير نوافذ:
نافذة للحنين
ونافذة للأنين



ونافذة للغناء
ونافذة للبكاء
نوافذ شتى
ترى خللا فادحا
حين تنظر منها
أراه ما تراه
وأكنس
ما دام قلبي قويا وحيا سأكنس
... ما زلت أكنس

وأخيرا، يعز علي أن أختم كلامي ولا أفكر بأولئك النساء، أجمل النساء:

النساء اللواتي يجرجرن عتمتهن
ليرفعن فجرا يضيء الكلام
النساء اللواتي ثكلن بأفراخهن
ليطلقن سرب الحمام
نساء فلسطين
والعائدات بأكفان عشاقهن وأزواجهن الخفيفة
من مصر حتى حدود الشآم
عليهن
دون النساء السلامْ.



بيارن ملكفيك: التزام وتسامح*



بقلم: ناصر فطواكي
باحث ومترجم مغربي

لا جدال في أن النزاعات ذات الصبغة الدينية والعرقية التي تشهدها بعض الدول والمجتمعات تجعل من قيمة التسامح موضوع الساعة؛ لما لها من أهمية في ترسيخ قيم التعايش، كما هو الشأن في المجتمعات المتعدّدة ثقافياً، والتي يختلف مواطنوها دينياً ولغوياً وعرقياً، مثل المجتمع الأمريكي والكندي والاسكندنافي، حيث يسود مبدأ احترام الأفراد لبعضهم بعضاً.

في هذا السياق، نستحضر مقالاً للمفكر البوسني بيارن ملكفيك Bjarne Melkevik تحت عنوان: «التزام وتسامح»، يستعرض فيه أهمية وضرورة انتقال الفضيلة الفردية والحداثية للتسامح إلى منطق مؤسساتي، لأنّ التسامح لم يعد فقط مطلباً يقضي باحترام الناس لبعضهم البعض، ولكنه أصبح أيضاً التزاماً مؤسساتياً تمليه متطلبات الديمقراطية. فالدكتور بيارن ملكفيك لا يعتقد أنه بإمكاننا فرض التسامح من الأعلى؛ أي في إطار علاقة نازلة من الدولة إلى المواطن، أو إعطاء التسامح أيّ تعريف مجرّد؛ بل على العكس؛ فالمواطنون ملزمون بالانخراط في ترسيخ ثقافة التسامح لكي يتمّ تحديد الفضاء العام. تسمح الديمقراطية إذن، بتعريف اللاتسامح، هذا التعريف لن يكون إلا من نصيب

> بالنسبة إلى الدكتور ملكفيك توجد صلة وثيقة بين التسامح السياسي والمعاملة بالمثل التي تنتج عن الحوار الديمقراطي

* Bjarne Melkevik., tolérance et modernité juridique, Québec, les presses de l'université Laval, coll. Dike, ٢٠٠٦, p. ٢٤ –٢٨



صناع القانون الحديث، وهم المواطنون والمواطنات. فبالنسبة إلى الدكتور ملكفيك توجد صلة وثيقة بين التسامح السياسي والمعاملة بالمثل التي تنتج عن الحوار الديمقراطي. هذه المعاملة بالمثل، يجب أن تتخذ بكلّ حزم موقفاً لصالح الضحايا والفئات الأكثر حرمانا في المجتمع.

تجدر الإشارة إلى أن التسامح، في عالمنا الحديث، يأخذ شكلين بارزين بحسب بيارن ملكفيك؛ فالأول ينبسط كفضيلة تبني على احترام الغير، وتلقي بالثقل كله على الفرد، فهو الذي يجب أن يتحمل مسؤولية ضمان تعميم ثقافة التسامح في المجتمع. أما الشكل الثاني، فيعتبر نتيجة لتطور الفكر الفلسفي المعاصر، حيث أصبح التسامح صفة للمؤسسات. هذه الأخيرة هي التي ينبغي أن تتحلى بالتسامح، فهو لم يعد مجرد مطلب لاحترام الناس لبعضهم البعض، بل أصبح التزاما مؤسساتيا يحدد المجتمع العادل وتمليه متطلبات الديمقراطية، وذلك عن طريق إنشاء جهاز معياري ومؤسساتي يجعل اللاتسامح مرفوضاً ويصنفه خارج القانون[١].

يُعدّ الدكتور بيارن ملكفيك من أكبر الأساتذة في ولاية كبيك بكندا، وأحد أعمدة جامعة لافال الكبيكية، وهو أستاذ بكلية الحقوق. تتنوع اهتمامات أبحاثه ومجالات تدريسه بين فلسفة الحق وإبستمولوجيا العلوم القانونية، والمنطق والحجاج القانوني والقانون المقارن، وقد نشر العديد من الأبحاث والدراسات في هذا الميدان.

ما من شك، أن الحماية المؤسساتية للتسامح[٢] تلعب دورا أساسيا في الحياة المعاصرة، ومع ذلك، قد يتساءل المرء ما إذا كان من قبيل المفارقة أن يكون الفرد المراد حماية حرية اختياره هو الغائب الأكبر عن هذا النموذج من التسامح.

صحيح أن فلسفات «فضيلة» المؤسسات توجه اهتمامها صوب الفرد، إلا أنه على الرغم من أن الفرد، عند رولز على سبيل المثال، هو الذي يتعين عليه فعلا صنع نموذجه الخاص بمجتمع متسامح، تتحدد معالم تصوره الفلسفي بصورة مسبقة، فإن التساؤل الذي يطرح هو هل الفرد لا يزال هو المرجع الحقيقي الذي ينبني عليه الاختيار؟ وهل ما يزال للفرد وجود مستقل يعكس تركيبته المعقدة، أم إنّه لم يعد سوى «نقطة» افتراضية - أو عصابية - لمنطق تفكير مبرمج مسبقاً من قبل متطلبات النظام الفلسفي؟[٣]

> الإحراج الذي يواجه التسامح كفضيلة للمؤسسات، هو أنّه لا يُلزم أحداً

في الواقع، إذا كان التسامح «كحق» يشكل المؤسسات وغير منفصل عن مختلف سياسات ال تعددية الثقافية، والتمييز الإيجابي،... إلخ، فإنه من المؤكد أنّ هذه السياسات لن تكون لديها فرصة للنجاح، إلا إذا كان الأفراد على استعداد للانضمام إلى هذا النموذج من التسامح، أو ببساطة كانوا قادرين على القيام به. ولكن بالنظر إلى أن هذه تبنى من أعلى إلى أسفل؛ أي تتجه من الدولة نحو المواطنين، ألا تكون مهددة بالارتهان دوما بسبب وجود عجز على مستوى الالتزام، وعلى مستوى المشاركة الشخصية، وبالتالي على مستوى الديمقراطية؟ لماذا يتعين علينا أن نكون متسامحين؟ لضمان «روح» المؤسسات، لأنّ الدولة تتطلب ذلك.

ألا تكون البرامج الفلسفية، كتلك التي وضعها جون راولز في كتابه «نظرية العدل»، أو تلك التي دبجها في مؤلفه حول الليبرالية السياسية، مرهونة بالضبط بهذه الصعوبة؟ ما الذي يدفع المرء إلى الانضمام إلى هذا التصور الخاص بالمؤسسات السياسية إذا لم يكن على الأقل فيلسوفاً أو فقيهاً دستورياً؟[٤]

إذا كان الجواب على هذا السؤال سلبياً بالضرورة، فمن الواضح أنّ الفرد، في مواجهة السياسات التي تمتدح «فضيلة» المؤسسات، ليس لديه سبب آخر لدعمها سوى مصلحته الشخصية،

١- Ibid., p.٢١

٢- للمزيد من التفاصيل حول الحماية المؤسساتية، المرجو الاطلاع على ترجمة للمقال بقلم عبد الله المتوكل تحت عنوان «التسامح من الفضيلة الفردية إلى المنطق المؤسساتي»، منشور بالموقع الإلكتروني لمؤسسة مؤمنون بلا حدود بتاريخ ١٧ يونيو ٢٠١٤

٣- Bjarne Melkevik, Rawls ou Habermas. Une question de philosophie du droit, op. cite

٤- Ibid.p.٢٢



ولا يوجد لديه سبب للقيام بذلك، عندما تتعارض مع هذه المصلحة. الإحراج الذي يواجه التسامح كفضيلة للمؤسسات، هو أنّه لا يُلزم أحداً.

ألا يتعرض المطلب الحديث للتسامح، نتيجة لذلك، لخطر الانحراف مع الاحتراز المعاصر تجاه المؤسسات؟ يشكل التسامح المتصور كفضيلة فردية خالصة خطرا يتمثل في افتراض مواطنين بطوليين، حيث لا نجد في كثير من الأحيان سوى أناس عاديين أو «بدون مؤهلات»، بحسب عبارة موزيل (Musil). والحال أنّ السعة التي طالت مفهوم التسامح اليوم، لم تكن ممكنة بدون إضفاء الطابع المؤسساتي عليه، وإدراجه داخل خطاب مؤسساتي، وهذا ما جعل من التسامح خيرا لا يقبل التفويت؛ وبموجبه أضحى بوسع الأشخاص التمتّع به بصورة مستقلة عن أي مطلب ذي قيمة أخلاقية. ما نريد التوصل إليه هو الحاجة إلى تعبئة الديمقراطيين. يجب أن تثير مسألة «التسامح» دائماً حداثتنا القانونية والسياسية في ما يخصنا من حيث «نعم» أو «لا». إذا ركّزنا هكذا على ضرورة موافقتنا الديمقراطية، مسألة التسامح لن يكون لها فقط وضع أنطولوجي؛ بل بالعكس، سنبنيها إزاء تصوّر مصنوع من قبل الموارد المحرّرة من طرف هذه الحداثة، وبالتالي، فالتسامح هو مسألة تمسّ الفضاء العام بثلاث كيفيات:

> يجب أن تثير مسألة «التسامح» دائماً حداثتنا القانونية والسياسية في ما يخصنا من حيث «نعم» أو «لا»

١. عن طريق اشتراط تقديم الحجج والأسباب، لما نعتبره داخلاً في إطار ما لا يقبل التسامح معه؛
٢. من خلال المطالبة بالدفاع عن حقوق «الضحايا» بالعمل على مساعدتهم، دون الإضرار بهم، ودون الإضرار بمصالح الآخرين؛
٣. العمل دائماً «بالمعاملة بالمثل»، بصورة يكون معها التسامح للجميع وليس امتيازاً لهذا أو ذاك.

لعلنا لا نجانب الصواب، إذا قلنا بأن المطلب الأخير المتعلق بـ «المعاملة بالمثل» هو الأكثر أهميّة، وربّما يكون هو مفتاح أيّ عمل سياسي يروم بناء تصوّر حداثي للتسامح، لأنه بالإلحاح على عدم وجود «امتيازات»، وعلى أنّه لا يكفي الاختباء بطريقة غير شرعية خلف الموقف الذي يتعين فيه على «الآخر» أن يتسامح معنا، سيترتب عن ذلك بالضرورة أنّ التسامح هو شيء نعطيه لبعضنا بعضاً. ليس هناك مادة للتسامح بمعنى الكلمة، ولكن دائماً هناك ذوات يجب أن تختار التسامح لدوافع وجيهة.

من المخاطر الرئيسة التي تتهدد المجتمع الحديث، هي أن يصبح التسامح «موضوعاً»، أو بشكل أكثر دقة، أن تقوم أيديولوجيات الكراهية، أو أيّ شكل من أشكال التعصب باستخدام التسامح المؤسساتي لأجل مواصلة ألاعيبها القذرة. وبعبارة أوضح، فإن العنصرية، والإسلام المتطرف، والفاشية، ومعاداة السامية، إلخ... لا تحترم على الإطلاق شرط المعاملة بالمثل؛ فهي حينما تضع نفسها خارج الحداثة القانونية والسياسية، تكشف أنّها لن تكون أبداً صانعة للمفهوم الحديث للتسامح، بل إنّنا على حق في عدم الاستسلام لتعصبها، وفي الحرص على محاربتها ليلاً ونهاراً، أينما تستعمل الصورة البشعة للتعصب، تحرض أحدهما ضد الآخر، وتخدع مجتمعات بأكملها بغرض استمالتها وجعلها تنتصر لقضاياها.

مطلبنا الثاني بدوره، يُفسّر بناء على هذه الخلفية؛ لأنّ التعصب بمختلف أصنافه ضار لا محالة؛ فما ينبغي أن يحظى باهتمامنا هو الصوت الفردي لضحايا التعصب، مهما كان ضعيفاً أو غير مسموع، وهو الذي يجب أن نتوسل به، لكي نسلط الضوء على المؤسسات، حيث الرجال والنساء والأطفال القابعون في البيئات التي لا تسمح لهم بتاتاً بالمشي مرفوعي الرؤوس والاستمتاع بالحياة، بكل ثقة وبكل استقلالية في مواجهة تبعية القوى الدينية التقليدية التي تمعن في تسميم حياتهم. إنّ من يهتمّ بالتسامح لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يقلق لنزوع قوى القمع، والتبعية، إلى استخدام شعار «التسامح» بطريقة غير شرعية؛ لأنها في كثير من الأحيان لا تفعل ذلك إلا لأجل مواصلة القمع والتمييز، وهلمّ جرّا. الأفضل أن نكون صادقين: فالحكم الذي تتخذه إزاء المؤسسات الموسومة بالتعصب هو الذي يجب بالضرورة أن يوجه خطواتنا.

عندما نصل، في نهاية المطاف، إلى المطلب الذي يقضي بالتقديم الدائم لأسباب وجيهة، تبرر ما اخترنا إدراجه ضمن دائرة اللاتسامح، فإننا نجد أنفسنا في الأخير أمام الديمقراطية، ليس إزاء الديمقراطية بمعناها الضيق الذي يحصرها في المؤسسات فقط، وإنما إلى تلك السيرورات الديمقراطية التي تسمح للديمقراطيين بإصدار الأحكام العامّة، وسَنِّها في شكل تشريعات مناسبة. بهذا المعنى، لن يكون التشريع إلا الشكل الحديث للمعاملة بالمثل، والتي تقتضي ترسيخ القيم الديمقراطية وتعميمها بصورة واسعة على النحو الذي يجعلها تحل محل اللاتسامح، ولتغدو الديمقراطية كشكل حديث للمعاملة بالمثل حقا غير قابل للتفاوض.

تلخيصاً لما سبق تأكيده، نخلص إلى أنه بوسع الديمقراطية، في إطار تصور حديث للتسامح، أنْ تجعل ممكنا أمر تعريف اللاتسامح، ومن هذا المنظور، التزامنا دائماً مطلوب، لأنّه في عالم ومجتمعات موسومة بالتعددية الواقعية، والتعددية الثقافية الرسمية وغير الرسمية، وهلمّ جرّا، فإنّ اللاتسامح قد يكون أقرب ممّا نتخيل. إنّ الوضع الجديد الذي يتمثل في قبول التميز ضد المرأة (وعلى نطاق واسع ضد الأنوثة)، وضد غير المؤمنين أو الملحدين...إلخ، باسم هذه التعددية، التعددية الثقافية، وباسم مسميات أخرى، ليطرح أكثر من مشكل: أيجب علينا أن نحتفظ لأنفسنا بمطلب ووعد المساواة ونمنعه عن الآخرين باسم التنوع والتعدد الثقافي السالف الذكر؟ فمن المستغرب أن نثبت كيف أنّ هذه الفكرة أصبحت تستهوي الكثير من المناصرين، وكيف أنهّا لا تأخذ في الحسبان أنهم يجلبون، عن غير قصد أو عن طريق اللطافة، الحطب إلى النار المشتعلة بالكراهية والتعصب.

كلمة أخيرة

لعلنا لا نجانب الصواب، إذا قلنا بأن رهانات التسامح الآن ساءت جذرياً مقارنة بما كانت عليه منذ ثلاثة قرون في أوروبا، وعقب نهاية الحروب الدينية. مسألة تهدئة النزاعات الدينية، ما تزال موضوع الساعة في أصقاع عديدة من كوكبنا، وليس علينا التنقير بعيداً لفهم المعنى المحدّد لهذه المسألة على المستوى العالمي، في ما يخصّ الإرهاب الديني الجديد. ولكن من الواضح أنّ الدول الغربية استفادت منذ قرون من التقاليد المنفتحة والموسومة بالتسامح. هذه المسألة تطرح ببساطة بلغة جديدة، خصوصاً إذا كان النجاح المؤسساتي للتسامح لا يهدّد بتدمير تجذّره عند الفرد.

> إن رهانات التسامح الآن ساءت جذرياً مقارنة بما كانت عليه منذ ثلاثة قرون في أوروبا، وعقب نهاية الحروب الدينية

إذا كان خطر اللاتسامح موجوداً فعلياً، فإنه يكفينا أن ننقل رهانات ومقتضيات التسامح نحو تصور ديمقراطي وتعددي للحداثة القانونية والسياسية، حتى نتمكن من تشييد آفاق جديدة ورحبة من التسامح. هدفنا وغايتنا من ذلك كله، يكمن في خلق تجذر ديمقراطي حقيقي للتسامح كسلوك فردي ومؤسساتي في المجتمع والانطلاق نحو أفق مستنير ديمقراطيا لتقويض أركان اللاتسامح.

شائكية العلاقة بين المثقف والسلطة



بقلم : د.غيضان السيد علي
باحث مصري في الفلسفة والفكر العربي المعاصر

> أصبح المثقف العربي المعاصر يعيش عزلة إجبارية، أو حضوراً كتابع للحاكميات السياسية والفقهية

تَبْقى علاقة المثقف بالسلطة علاقة شائكة؛ فمن المؤكد أن سر تطور الأمم يتمثل في ذلك الدور الإيجابي الذي يمثله المثقف إزاء السلطة؛ حيث يرشدها ويدلها على المسار الصحيح. ولكن موقع هذا المثقف يظل دائماً هو محل الخلاف، فهل يكون المثقف على يسار السلطة أم على يمينها؟ مُؤيداً أم معارضاً؟ مُعِيناً أم متربصاً؟ وهل يَسْلم من نقد عموم الشعب، إذا كان في اليمين؟ أم يَسْلم من بطش الحاكم إذا كان في اليسار؟

فلا شك أن المثقف العربي المعاصر أصبح يعيش عزلة إجبارية، أو حضوراً كتابع للحاكميات السياسية والفقهية، إذ جعلته بعض الأدوار أكثر عرضة لمواجهة التهم التي طالما صممتها له سلطات الاستبداد، بدءاً من التكفير والزندقة والمروق، وانتهاءً بالخروج عن الملة والأمة، وصولاً إلى المثقف المضاد للحزب والثورة. ولقد راح ضحية هذه التهم الباطلة والخارقة الكثير من المبدعين الكبار في تاريخ ثقافتنا العربية والإسلامية، عندما حاولوا أن يرسلوا رسائلهم الناصحة إلى الملوك والحكام؛ حيث يرصد لنا التاريخ محاولات عدة؛ حاول فيها المثقف أن يرسل إلى الحاكم رسالة يجمع له فيها معرفته بأفعال الملوك والحكام والعظماء، رسالة تحمل خلاصة خبرته الطويلة بأحداث الحاضر ودراساته العميقة لأحداث الماضي، رسالة يطلعه



فيها على قراءاته الخاصة بمتطلبات مجتمعه وحاجات وطنه، وذلك في صورة نصائح ومواعظ ووصايا تهدف جميعاً إلى إرشاد الحاكم في حكم الرعية، وتبصيره بأمور الدولة وآداب السلوك والمعاملات القائمة على العدل والهداية وحسن السياسة. ومن أجل ذلك، حاول قديما الفيلسوف اليوناني أفلاطون، أن يجعل من الفلاسفة حكاما، أو أن يجعل من شروط من يتولى مقاليد الحكم في البلاد أن يكون فيلسوفا، ولما رأى صعوبة تحقيق هذا الأمر، استبدله بضرورة تعليم الحكام الفلسفة، الأمر الذي تحقق بالفعل على يد تلميذه الفيلسوف أرسطو الذي عهد إليه ملك مقدونيا بمهمة تعليم وتربية ابنه الإسكندر، فجعل منه واحدا من أعظم القادة الذين عرفتهم البشرية.

وفي العصر الإسلامي، أرسل ابن المقفع رسالة إلى أبي جعفر المنصور مؤسس الدولة العباسية، يخبره فيها أن يحسن اختيار معاونيه، ثم صنف إليه كتاب «الأدب الكبير» الذي أورد فيه أقوال السابقين في آداب السلطان والحاكم، لكن أبا جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لأكبر خلافة إسلامية، وهي الخلافة العباسية، والذي قال عن نفسه: «إنما أنا سلطان الله في أرضه»، قتل هذا المفكر العظيم، فكيف يتجرأ ابن المقفع على ظل الله في الأرض، عاقبه المنصور بتقطيع أطرافه قطعة قطعة، ثم تشوى على النار أمام عينيه ثم يأكلها ابن المقفع، حتى يموت. إذن، فمهمة المثقف ليست سهلة يسيرة، بل إنها قد تنكل بالمثقف، إن خانه التعبير، فتكلفه حياته، وليس ابن المقفع هو المثقف الوحيد الذي ناله تنكيل الحاكم، وإنما يشاركه في ذلك الكثير؛ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن رشد ونكبته الشهيرة، حيث حاول أن يعلي من قيمة العقل والأدلة البرهانية على النقل والخطابة، وبدأ صراعا طويلا مع أعداء العقل والحق ومواكبة التطور، وحين تدخل الحاكم الذي استعان من قبل بابن رشد، ليشرح له فلسفة أرسطو، ما كان من أمر الحاكم إلا أن نكَّل بالمثقف ونفى ابن رشد إلى جزيرة الليسانة النائية، وأمر بإحراق كتبه أمام الجميع.

وقبل ابن رشد، كتب الإمام أبو حامد الغزالي في أواخر أيامه كتاب «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» كتبه بالفارسية وقدمه إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، حيث عالج هذا الكتاب الموضوعات السياسية والاجتماعية ومجتمع الحكام والسلاطين، وحياة البلاط في العصر الذي عاش فيه الغزالي، وذلك في صورة نصائح ومواعظ ووصايا تهدف جميعا إلى إرشاد الحاكم في حكم الرعية وتبصيره بأمور الدولة وآداب السلوك والمعاملات القائمة على العدل والهداية وحسن السياسة. فلم يسلم الغزالي من النقد حتى أيامنا الحالية، ومن أبرز أوجه النقد التي توجه إليه حتى اليوم، هو ما يُلمح إليه الكثيرون من صور الوصولية والانتهازية؛ فيقولون إن الغزالي كان حسب التعبير الدارج (يركب الموجة)، فإذا علا نجم الفلسفة تفلسف، وإذا أصبح الحاكم من أنصار علم الكلام تكلم، أما إذا سطع نجم التصوف وأهله، كان من أكابر الصوفية!

> ما أحوج بلادنا إلى دور المثقف الناصح الخبير بشؤون واقعنا الراهن، الذي يعاني من التأزم نتيجة الأحلام العريضة لمجتمع مثالي المطالب

وفي العصر الحديث، يأتي كتاب الأمير لمكيافيللي على رأس الكتب التي قدمت كرسائل إلى الحاكم، فما يكاد يُذكر اسم مكيافيللي إلا وتقفز إلى الأذهان صورة شيطان بشع يوسوس إلى رجال الحكم بانتهاج سياسة القسوة والغش والدس للسيطرة على الشعوب، دون احتفاء بالمبادئ الدينية والإنسانية والخلقية، وما يكاد يذكر اسم «الأمير» كمؤلف إلا ويتمثل للسامع دستورا أسود، يبرر الجور والظلم، والتجرد من الإنسانية في حكم الشعوب والدول.

وكما هو معروف تاريخيا، كتب مكيافيللي كتاب الأمير إلى الأمير لورنزو بن بيرو دي ميدتشى.. وقد كتب في صدر هذا الكتاب مخاطبا هذا الأمير قائلا: «من نيقولا مكيافيللي إلى لورنزو العظيم بن بيرو دي ميدتشي، اعتاد أولئك الذين يرغبون في كسب ود أي أمير أن يسعوا إلى ذلك بتقديم الهدايا إليه، من أثمن ما يمتلكون، أو مما يعلمون أنه يستطيب من أشياء! ولكني لم أجد بين مقتنياتي شيئا أعتز به – أو أقدره – فوق معرفتي بأفعال العظماء، تلك المعرفة التي اكتسبتها عن طريق الخبرة الطويلة بأحداث الحاضر، والدراسة المتواصلة للماضي، وليس في

وسعي أن أقدم إليك هدية أعظم من أمكنك من الإلمام - في وقت قصير - بكل تلك الأمور التي تعلمتها أنا، وتكبدت في سبيلها متاعب الفقر والحرمان والتعرض للخطر، طوال سنوات عديدة... فإن من الضروري للحاكم أن يعرف طبيعة الناس معرفة وثيقة، كما أنه من الضروري للرعية أن تعرف طبيعة الحكام». وأرسل الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في بداية أربعينيات القرن المنصرم مجموعة «رسائل النور» إلى الملوك والحكام العرب والمسلمين حينذاك، فلم يكن مصيره أبعد بكثير من مصير سلفه ابن المقفع.

وفي الحقيقة، ما أحوج بلادنا إلى دور المثقف الناصح الخبير بشؤون واقعنا الراهن، ذلك الواقع الذي يعاني من التأزم نتيجة الأحلام العريضة لمجتمع مثالي المطالب، وبين واقع متأزم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، يعاني اقتصاديا من التضخم وارتفاع ميزان الواردات على الصادرات، وتراكم الديون الداخلية والخارجية، وذلك في أغلب البلاد العربية، ويعاني سياسياً في ظل ذاك التدافع الرهيب من الجميع للسيطرة على مقاليد الحكم والوصول إلى كرسي العرش، بل ويعاني أيضاً ثقافياً، ما بين تيارات إسلامية، وأخرى ليبرالية وعلمانية، يتهم كل تيار منها الآخر بالسطحية والتبعية للغير، ويدَّعي كل منهما امتلاك الحقيقة المطلقة في دوغماطيقية واضحة.

فما أحوجنا أولاً إلى من يهيئ المناخ العام للتوافق العام، والمعاونة بدلاً من الاحتراب والصراع، والدعوة للعيش سوياً في وحدة متناغمة في إطار يحتمل التنوع والاختلاف، نحو إنسانية تضع من الوسائل ما يمنع الحروب والصراعات، ونحو تكريس إنسانية الإنسان في إطار من المساواة الحقيقية بين كل البشر في الحقوق والواجبات دون الإخلال بحق الوطن أو حق والمواطن.

إشكالية سؤال النهضة: لماذا تأخر العرب؟ وكيف يتقدمون؟

بقلم: نبيل علي صالح
باحث وكاتب سوري

لا يزال سؤال النهضة الإشكالي (لماذا تأخر العرب وتقدم الغرب؟) حاراً وحاضراً بقوة في الأجواء الثقافية العربية، كلحظة تشكّله الأولى منذ بدايات القرن الماضي.. كما ولا تزال الإجابات عليه - على تنوعها واختلافها الفكري والأيديولوجي - تتوارد بأشكال وأنماط فكرية وقوالب مفاهيمية متنوعة ومتعددة، لكن أكثرها جاء بصيغة مشاريع نهوض تقدمية، أسّست فكرياً ومعرفياً - وبحسب مرتكزات ومرجعيات تلك المشاريع - لتصورات الحالة المنتجة الفعالة لواقع العرب

المنشود والمأمول منه أن يكون نافعاً ومثمراً في بناء مجتمعات عربية متطورة ومنتجة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والملاحظ أن كل تلك المشاريع - على تباين وتعدد مرجعياتها القومية أو اليسارية أو الدينية الإحيائية - اجتمعت على اعتبار أن أزمة التقهقر الحضاري التاريخي العربي الممتدة منذ أكثر من ألف عام خلت، هي في الأساس ذات امتدادات بنيوية ثقافية ومعرفية بامتياز، لها امتداداتها واستطالاتها السياسية والاقتصادية. ولكنها - مع اتفاقها في بعض مقدمات الرؤى التنظيرية نسبياً - اختلفت وتباينت حول طبيعة مضامين طرق معالجة الأزمة (أو المرض الحضاري)، ومتطلبات حلها، وفك عراها المعقدة، وبالطبع من دون نتائج عملية حقيقية تذكر على صعيد الإنسان والتنمية والاقتصاد، إلا في حالات نادرة تمثّلت في أنماط شكلية من الرخاء والرفاه الاستثنائي الذي عاشته بعض دول الخليج العربي نتيجة اقتصاداتها الريعية ليس إلا.

إن أزمة التقهقر الحضاري التاريخي العربي الممتدة منذ أكثر من ألف عام خلت، هي في الأساس ذات امتدادات بنيوية ثقافية ومعرفية بامتياز

ولكن كل مشاريع النهوض الآنفة الذكر، كانت تؤكد على أن عملية تغيير بنى مجتمعاتنا (الراسخة) - بمختلف مفاهيمها المتصلبة وشيفراتها المخفية الفكرية والمعرفية والثقافية، ومختلف مآلاتها السلطوية شبه الدائمة منذ أيام وزمانات «الملك الأموي العضوض» - بحاجة ماسة إلى جهود فكرية بنيوية نقدية مضنية وحثيثة من الاشتغال على نقد الذات الحضارية المريضة، واجتراح أسس الحل، وذلك للقيام لاحقاً بكافة مقتضيات وإجراءات التحولات البنيوية في طبيعة العقليات والمفاهيم، وفي أنماط الوعي والسلوك والتفكير والتخيل..

والملاحظ أيضاً، أن هذا المعتقد الفكري قد رسخ في بنية الثقافة العربية، واستوطن في قلب ووعي كل مشاريع الاستنهاض العربية؛ أي إنه كان بداية الطريق لكل المشاريع التنويرية والنهضوية اللاحقة.. وهذا ما كنا نقصده دوماً من أن علة المرض ثقافية معرفية قبل أن تكون أزمة

الاعتماد كلياً على الخارج لا معنى له على المستوى العملي، لأنه سيجعل من بلداننا رهينة لزمن هذا الآخر

سياسية واجتماعية.. هي أزمة فكر وثقافة ووعي، قبلَ أنْ تكونَ أزمة إدارة للشأن السياسي والاجتماعي العام... ولهذا كان الانطلاق من البداية؛ أي من الثقافة، من الرأس والعقل، وليس من النهاية، أي من السياسة والاجتماع والاقتصاد، وتدبير شؤون الناس، وفض خصوماتهم، وتحقيق العدل والمساواة بينهم، من خلال بناء دولة المؤسسات والقانون، دولة المواطنة الصالحة.

لكن بالمقابل، هناك من يقول بأن الفاعل الاجتماعي الذي هو الفرد، ليس مجرد كائن مزروع في فضائه الخاص، بل هو متأثر ببيئته وظروفه، منفعل بها، وهي تكرر أثرها عليه، ولهذا هو بحاجة لأرضية وتربة سياسية مناسبة لتفتق إبداعاته وبروز طاقاته ومواهبه، وهذه التربة لا بد وأن تنمو فيها وتعلو فيها قيم الحرية والمساواة والعدالة، فكل المجتمعات البشرية التي تطورت وأنتجت وقدّمت، كان مطلبها الأول وشرطها الرئيس للنمو والحضور والإبداع هو إحقاق العدالة وإحلال السلام في ربوعها، وبالتالي تحقق النظام، بين أعضائها، كشرط ضروري لوضعها في مناخ العمل المنتج والتعاون المثمر، ووسيلة ذلك تنمية الشعور الإيجابي عند الأفراد واحدهم تجاه الآخر، وفي مواجهة السلطة العمومية[١]. ويقتضي هذا خلق المصالح المتبادلة، وتحويل السلطة إلى وسيلة تناسق وتناغم ومسؤولية معاً؛ أي تحويلها من الداخل بالشرعية، حتى يمكن استبطانها والتعامل الإيجابي معها وقبول قراراتها. ولكن عندما تتدمر السلطة (المشتملة على عناصر النظام والترتيب والمرتبية والشرعية، والمسؤولة عن تأطير المجتمع ولجم عناصره) في أحد عناصرها أو مقوماتها الأساسية (لتتحول إلى عنصر مخرّب وخصم لمجتمعها)، فإن ذلك يعني ضياع الأسس والقواعد التي يقوم عليها هذا التنظيم العام، ومن ثم يحدث الانفلات والانفكاك، وأخيراً تهديد النظام العام بالانهيار.

١- غليون، برهان، «نقد السياسة.. الدولة والدين»، ص:١٨٣، صادر عن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، لبنان / بيروت..



ولكن مع ذلك الوعي بأهمية العامل السياسي، يبقى السؤال مشروعاً ومفتوحاً بالفعل، طالما أننا لا نزال نقبع في الهوامش الحضارية على مستوى العلم والتطور والحداثة السياسية والمعرفة العلمية والتقنية: لماذا لم يتمكن العرب - بعد تشخيص الداء والمرض والوقوف على سبل وطرق العلاج الممكنة - من السير ولو خطوة واحدة على طريق التطور التقني والتقدم العلمي التاريخي لبناء مجتمعات قوية فاعلة، قائمة على وجود مواطن سليم معافى عقلياً ومادياً، منتج ومؤثر علمياً وتقنياً، وحاضر بقوة فكره وعلمه ومخترعاته

ومكتشفاته، في معادلة الحضور الكوني العالمي مثل باقي حضارات وأمم العالم المتقدم؟! ولماذا لم تتمكن سلطات ونظم الحكم العربي من بناء وطن مقتدر قوي حصين ومنيع.. مع أنها رفعت وتبنت شعارات التقدم والتنمية والتطور والاكتفاء الذاتي؟ ولماذا فشلت كل أو معظم خطط واستراتيجيات التنمية الاقتصادية الداخلية لتلك البلدان التي باتت لشدة الفشل الذريع، تعتمد - بصورة شبه كلية - على المصادر الخارجية تمويلاً واقتراضاً واستثمارات كنتيجة طبيعية لغياب تلك السياسات الاقتصادية والاجتماعية العامة، والعجز ربما -في حال وجود بعض تلك السياسات والبرامج التنموية- عن استثمار واستنفار كل القدرات والمواهب والإمكانات البشرية وقدرات الفئات الوسطى، وأصحاب المهارات والكفاءات في عملية التنمية البشرية الحقيقية؟!..

ومع وجود تطبيقات وتجارب عملية محددة كمّاً ومحدودة نوعاً لبعض خطط التنمية ذات الطابع الاشتراكي، أو تلك التي اعتمد فيها على اقتصاد السوق (غالباً ما كانت ذات تجارب ريعية الطابع تقوم على تجميع وتكديس المال والعملة

الصعبة ضمن صناديق «سيادية!!» جراء بيع مواد خام كالنفط والغاز وغيرهما من دون وجود صناعات ثقيلة ذات امتدادات متجذرة في بنية الدولة والمجتمع، ومن دون امتلاك زمام المبادرة العلمية والتقنية فيها)... كل ذلك لم يمنع للأسف من زيادة رقعة ومساحة وحجم بقع الفقر العملاقة، ولا في إنقاص معدلات البطالة المرعبة، خاصة لدى أجيال الشباب المتعلم في بلداننا العربية، وحتى منها تلك البلدان والدول الغنية بالثروات النفطية نتيجة الطغيان السياسي، وسوء إدارة الموارد، وهيمنة عقلية الفساد.

وهذا الفقر (أو التفقير) الشامل والتخلّف المقيم - الناجم أساساً عن افتقار المجتمعات لمعايير وقيم رابطة، مما دفعهم إلى حضن الفوضى والجهل، والارتماء في أتون محرقة القوى والعقائديات والانتماءات ما دون وطنية - هذا الفقر المعمّم لا نعتقد أن محاربته ستنجح بصورة مضمونة النتائج إلا

في ظل وجود مناخ سياسي حر وتشاركي منفتح، تتم فيها وبسلاسة عملية توطين العلم والمعرفة العلمية والتكنولوجية، والدخول إلى عالم صناعة وإنتاج السلع والخدمات المطلوبة في ظل هذا الاقتصاد المعولم الذي نعيش فيه، والذي لا مكان فيه إلا للأقوياء والمنتجين الفاعلين.

وقد أثبتت التجربة التاريخية العربية في علاقة العرب مع الغرب، ومع مختلف دول العالم المتقدم، أن الرهان على الدول المتقدمة (في مسألة مساعدة العرب على النهوض، والسير على طريق التقدم الحقيقي)، هو رهان على حصان خاسر إلى حد كبير، من دون وجود أسس ذاتية ومبادرات عربية داخلية خلّاقة وفعالة، يمكن أن تشكل أساساً لكي يمد لنا الآخرون يد العون (وهذا من حق هذا الغرب).. بما يعني أن الاعتماد كلياً على الخارج لا معنى له على المستوى العملي، لأنه سيجعل من بلداننا رهينة لزمن هذا الآخر، وسيبقيها في ثلاجة الانتظار وحالة تخلف ورثاثة مغطاة بقشرة حداثوية شكلية لا تغني ولا تسمن من جوع.

> عملت النخب التسلطية الحاكمة عندنا في عالمنا العربي والإسلامي على مر تاريخنا الثقافي والسياسي، على إلغاء هذا حياة الفرد بصور وأشكال شتى، والتلاعب به

فالغرب سبق أن أقام وجوده، وركز وعمّم مركزيته الثقافية والحضارية، وحضوره النوعي المؤثر من خلال تلك الثورات العلمية والتقنيات المذهلة والاكتشافات الكبرى المفيدة الفائقة على مستوى العالم، وعلى حساب باقي ثقافات هذا العالم بالطبع، وخصوصاً ثقافتنا العربية الإسلامية.. وهذه من أهم التحديات، لا بل هي تأتي على رأس قائمة الأولويات المصيرية التي تحيط بثقافتنا وحضارتنا التي توقف إنتاجها العلمي والبحثي عن التوالد الذاتي منذ قرون طويلة كما ذكرنا، لتصبح تابعة ومستلبة، منفعلة غير فاعلة، في ظل تنامي وتصاعد الحركية العلمية للغرب الحديث على كل المستويات والأصعدة، حتى باتت الاختراعات الحديثة تقاس بالشهور وليس بالعقود الطويلة.

وقد لعب هذا التراجع (والإقامة في رثاثة التخلف العلمي والمعرفي العربي والإسلامي عن الركب العلمي الغربي، والذي جاء كنتيجة طبيعية لحالة الترهل الثقافي والكساد العلمي الطويل منذ أكثر من ألف ومائتي عام، وهيمنة العقل الفقهي المتزمت وترسبات وتراكمات الشروح التقديسية للذات البعيدة عن روح وفكرة الحرية ومنطق التشارك والتفاعل والحوار..

بعد أن كان للحضارة العربية الإسلامية تأثير حيوي في تطور أوروبا العصور الوسطى... أقول: لعب هذا التقهقر والتراجع والارتكاس الحضاري الإسلامي دوراً كبيراً في تشتيت مقدراتنا ومواردنا وقوانا الحضارية المادية والمعنوية، وساهم في تهميشها، وجعلها عديمة الفاعلية والجدوى في العمق والامتداد والتأثير.. خاصةً مع تضخم الجانب النظري على حساب ضآلة وضحالة الجانب العملي التقني؛ أي مع ضخامة التأويل والشرح النظري وشرح الشرح على هوامش وحواشي الكتب القديمة بلا فوائد تذكر، مما ساهم في توقف النمو النوعي والإنتاج العملي.

ونحن - بطبيعة الحال - لسنا معقدين من النظري والفكري، ولا من المتون والشروحات الثقافية التاريخية الضخمة، بل هي قد تصبح إضافة نوعية غنية شرط نقدها ومحاورتها من الداخل، لتتحول لاحقاً إلى حالة تبشير ثقافي منفتح وإيجابي، تبشير بقدرة الفاعل الإنساني على جعل الحياة جميلة لكل إنسان، وهذا لا يكون إلا ببناء رؤية خلاقة لتفاعل الإنسان مع الإنسان[٢] مع الإنسان الآخر، وهذا هو لب حوار الثقافات والحضارات.. والإنسان يصل إلى قمة إبداعه وتجسيد جوهر الإنسان فيه حين يتفاعل مع أخيه الإنسان بصفته إنساناً بعيداً عن آنية السياسة، وانغلاقات المذاهب، وهيمنة الهويات القاتلة.

وهذا التحدي الأكبر، تحدي الحوار والتفاعل الإنساني الخصب، تحدي استنهاض الذات الحضارية

٢-الحمد، تركي، «الثقافة العربية في عصر العولمة»، ص: ٨٤، دار الساقي، لبنان / بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

الفاعلة له، هو ما يتطلب إعادة بناء معرفية جديدة وعصرية للمشروع الثقافي العربي الإسلامي الخاص بهذه الحضارة الشاهدة، ليكون منفتحاً على العصر والحياة بلا عراقيل ولا حواجز ولا محددات، وقادراً على استيعاب الواقع الموضوعي الجديد المرتبط بعنصري الزمان والمكان، وإبداع القواعد والمعايير النصية الفكرية الجديدة الخاصة به، خصوصاً وأن هناك تأثيرات عملية سلبية، لا بد أن تنجم عن تلك الثورات المعرفية والعلمية الهائلة اللامحدودة، في ما يتعلق بآليات التنميط الثقافي والحضاري القسري التي يستخدمها الآخر في عمله الدائم على فرض نموذجه الحضاري على الثقافات الحية الأخرى.

إذن، شرط الاستقلالية عن الآخر الغربي المتمركز حول ذاته، وعدم الانغماس فيه، والتبعية له، هو أول خطوة صحيحة سنخطوها على طريق النهوض والبناء والإثمار الحضاري، مع توافر شرط الإرادة، وتفعيل قدرات الأمة، وزجها في معترك الصراع الحضاري الراهن والمستقبلي... وباعتبار أن الفرد هو أساس وجوهر أي مشروع ومنطلق وغاية الحياة كلها، كخليفة لله على الأرض (كما تقدمه منظومة التفكير الإسلامية)، فلابد من العمل على تمكين هذا «الفرد-الخليفة»، من أخذ دوره وتحمل مسؤوليته وإثبات حضوره المؤثر والمنتج في ساحات وميادين العمل والإنتاج الحقيقي، لكن هذا التمكين لن يحدث طالما أن هناك تجاهلاً مقصوداً وممنهجاً (وبمستويات متعددة) لفكره وقناعاته ومعتقداته الدينية والتاريخية التي يؤمن بها وبقوتها وفاعليتها، ويواليها ويستهدي بها ويسير خلفها كنص أو كسلوك مقدس؛ أي يمحور حياته بناءً عليها، ذاتاً وموضوعاً..

المشكلة ليست قائمة في التراث بحد ذاته، كأزمة ذاتية مقيمة فقط، بل في استخداماته (واستعمالاته) المنحرفة، وتخويف الناس وإرباك وجودهم وحياتهم

وقد عملت النخب التسلطية الحاكمة عندنا في عالمنا العربي والإسلامي على مر تاريخنا الثقافي والسياسي منذ قرون طويلة، على إلغاء هذا الجانب من حياة هذا الفرد بصور وأشكال شتى، والتلاعب به، تفسيراً وتأويلاً، للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها التي تتعارض مع أساس فكرة «الخلافة الربانية» للفرد المسلم والإنسان عموماً..

فهناك عقود من القسر والقهر والقمع السياسي والاستفراد المتوحش بالسلطة، وإلغاء دور ومكانة الفرد العربي، وتهميشه، وتقليص مساهمته في بناء مركب الدولة ككل، وربما قد يكون هذا نوع من التعميم، ولو أنه يفيد التخصيص، لأننا كعرب عموماً بتنا مختصين ومعروفين ومشهورين وغارقين بهذا النمط البدائي من الحكم السياسي دوناً عن كثير من أمم وخلق الله كلهم تقريباً.. مع أنه من الضروري هنا ذكر أسماء وعناوين واضحة وصريحة خاصة.. بلا تعميمات لا طائل منها..

طبعاً، نحن لا نريد تبسيط المسألة السياسية والثقافية التاريخية المعقدة، إلى حد إبرازها وإظهارها بطريقة الثنائيات الحدية المطلقة، ولا نريد أيضاً شيطنة المفاهيم والطروحات والمواجهات مع الغرب أو مع نظمنا المستبدة، وتحميلهم دوماً مسؤولية الفشل الحضاري المقيم عندنا منذ قرون.

وهذا الغرب، بطبيعة الحال، لا يفكر - في مجمل السياسات الغربية والدولية التي يسلكها ويضغط باتجاهها - إلا نفعياً وذرائعياً بالقيمة الاستعمالية للشيء، استعمالية بالمعنى المادي العضوي للكلمة وليس فقط استعمارية تسلطية رعناء. هذا واضح تماماً منذ عقود طويلة للجميع، وعندما نراجع كل أدبيات أحزابنا العقائدية ذات المشروعية الثورية (من أقصى اليمين لأقصى اليسار) نجد أنها تبدع وتنتج وتتوسع - في عمق منظومتها التفكيرية ما شاء الله - في شرح أدق تفاصيل مؤامرات وخطط واستعمارية ونفعية الآخرين.. لا بل أكثر من ذلك، فهناك أحزاب عندنا أقامت وجودها بالكامل على فكرة النفي والاستئصال والمواجهات وغيرها.. هذا كله واضح ومعروف للقاصي والداني، بلا تنظير ولا طروحات مفاهيمية.. لكن:

ماذا فعلنا لمواجهة كل تلك السياسات النفعية الاستعمارية التي بتنا جزءاً منها بوعي أو بلا وعي؟ وماذا قدمت دول وحكومات العرب في مرحلة ما بعد عهود الاستقلال الشكلي عن المستعمر الخارجي، لتعمل وتواجه وتنتج وتبدع وتبني وتحدّث وتطور؟!! وما هي آليات المواجهة والاستجابة الإيجابية الفاعلة وردود الأفعال المنتجة والمثمرة حيال تلك السياسات الاستعمارية؟!! هل اهتمت بالإنجاز والبناء ومواجهة الاستعمار، مثلما اهتمت بالحفاظ على الكراسي والبقاء الأبدي في جنان «الملك العضوض» الموروث تاريخياً وثقافياً؟!!..

الإجابات صعبة ولاشك، وربما تكون مهينة وقاسية، ولكن نعود للتأكيد مجدداً على ما سبق أن أجبنا عليه وقلناه وكتبنا عنه مراراً وتكراراً بلا نخبوية ولا وصائية فكرية... أزمتنا في عالمنا العربي، ومنها أزمة مصر والعراق وتونس وليبيا واليمن وسورية هي بالتأكيد، ليست سياسية فقط (وإن كانت السياسة من نتائج الأزمة)، بل هي أزمة ثقافة وفكر وتربية كما قلنا تذكيراً وتأكيداً وأهمية نوعية.. فلا سياسة فاعلة ومنتجة وواعية بلا جمهور سياسي واعي ومثقف ومتحمل للمسؤوليات في دوائر ومؤسسات الحياة الصغرى منها قبل الكبرى... ولا إنتاج حضاري مادي حاضر ومثمر في عالم اليوم والغد (عالم القوة والعقل والعلم والصناعة والإنتاج المادي الهائل) بلا تربية وتنمية ذاتية ومجتمعية، وقبلها بلا تنشئة تربوية صحيحة وحقيقية تبدأ من الأسرة، وتنتهي في مناصب ومواقع المسؤولية الكبرى..

إنني أشتغل على نقد الفكر ونقد التراث والفكر التراثي الديني منذ أكثر من عقدين.. دعوت خلالها ولا أزال أدعو إلى تربية الفرد على معايير وأخلاق الدين والسلوك الأخلاقي الديني المنفتح والمنظم، وهي أخلاق عملية واسعة الامتداد والعمق الاجتماعي.. ولكن المشكلة، أن الأخلاق ليست فضاءات وأماني وأحلام وردية، حتى يقتنع الناس بها، بلا أرضية

قوية ومتينة من القانون والنظام العام.. خاصة وأن الإسلام - وهو دين اليسر والتعارف والمحبة والسلام الفردي والمجتمعي - قد أعطى الفرد المسلم مساحة واسعة من حرية الحركة القيمية الأخلاقية بلا تكلّف ولا تشدد، وبما لا يضيّق على حياة ومعيشة الناس عموماً.. وبما لا يؤدي إلى جعل القيمة سجناً نعيش في داخله بلا حركة ولا عمل ولا إنتاج..

إنني واثق أن الظروف الخارجية المهيمنة على الناس، والتي تشكل ضغطاً على وجودها ووعيها وفعاليتها، تضيّق عليها حياتها، وتقزّم خياراتها، ربما تكون من أسباب عدم نجاح كثير من معايير وتطبيقات التنشئة والتربية الإسلامية المنفتحة الصحيحة، الأمر الذي جعلها (أي تلك الظروف المحيطة الخارجية) تضغط على واقع وحياة الناس، وتدفعهم للانخراط مكرهين في طرق ومسارات عمل لا يعتقدون بها، ولا يؤمنون بكثير من التزاماتها وضوابطها؛ أي إن الضغط (ضغط الحاجة القاهرة) جعلهم يخرقون كثيراً من تعاليم وقيم ومبادئ تلك التربية الصحيحة، ويتبعون سبل التطرف والتعصب والتكفير والفوضى الدينية..

والناس بطبعهم وفطرتهم يميلون إلى البحث عن معيشتهم وحياتهم الطبيعية، ويريدون تحقيق سعادتهم، وإقامة جنة حقيقية على الأرض بعيداً عن الوعود والأماني غير المنظورة، أو بعيداً عن كثير من القناعات الدينية وغير الدينية.. وعندما نرفع الضغوط ومسببات التطرف، فسيعود الناس حتماً إلى وضعهم ونسقهم الحياتي الطبيعي..

وهذا ما يدفعنا إلى الإقرار هنا بأن المشكلة ليست قائمة في التراث بحد ذاته، كأزمة ذاتية مقيمة فقط، بل في استخداماته (واستعمالاته) المنحرفة، وتخويف الناس وإرباك وجودهم وحياتهم، ومنعهم من ممارسة دورهم الحقيقي، وحصولهم على حقوقهم الأولية البسيطة، ليست المادية فقط، بل المعنوية من حرية وكرامة وعدالة ومساواة في الحقوق والواجبات وإلخ..

وهنا يمكن أن نسأل: هل كان هناك تطرف وتعصب وتزمت وتخلف أكثر من تطرف الكاثوليك في أوروبا؟!! هل تعلمون بأن الحروب الدينية أو الصراعات الأهلية الأوروبية كلفت أوروبا عشرات الملايين من الأبرياء.. ولكن التنوير والحداثة والعلم والمعرفة، كله ساهم لاحقاً في حصول الناس على

الحرية هي هيكل وأساس بناء أية دولة أو مجتمع، لأنها هي جوهر الوجود، وهي جوهر كينونة الإنسان في هذا الوجود

حقوقهم ومعرفتهم بها قبلاً، ومن ثم أُنشئت الحقوقيات المؤسسية والضمانات الدستورية والهياكل القانونية، وعرف الناس والمجتمعات واجباتهم وحقوقهم المصانة بالقانون والدساتير وليس بالعسكر والأمن.. فماذا ينقصنا نحن في عالمنا العربي؟

ينقصنا أن نشير إلى الخلل بقوة وجرأة، لنبدأ بعلاجه ومكافحته، وهو - قبل أو بعد نقد الثقافة والتراث الديني - كامن في طبيعة السياسة واللعب السياسي، والاستبداد بالناس وقهرهم وجعلهم محبوسين في القمقم، وكبتهم وكتم أنفاسهم بلا قدرة على العمل والإبداع والحضور.. كامن في إخفاق النظم العربية في تحقيق الأهداف التي كانت تضعها لنفسها في التنمية والعدالة، والحرية الوطنية والتحرير، والأمن والسيادة، إلى تغيير عام في المناخ العقائدي العربي منذ نهاية السبعينيات[٣]. فماذا كانت النتيجة التي وصلت إليها تلك النظم، كانت هي الانحطاط الشامل والفساد المطلق.. مما أدى إلى مراكمة مشاعر الحقد والضغينة ضدها، ومهد لتراكم العنف المضاد في موجات متتالية عاتية منذ الثمانينيات من القرن الماضي، فما أن ترتاح مجتمعاتنا فترة زمنية قصيرة، حتى تدخل في أتون محرقة دموية لفترات أخرى، كانت تجتاح الدول والمجتمعات بهدف تغيير واجتثاث النظم الحاكمة من جذورها.. بعد إدراك لعدم إمكانية الإصلاح التدريجي..

وبمراجعة تاريخية بسيطة، نجد أن تجارب الشعوب حافلة بما يحدث عندنا اليوم، فالدول المتقدمة الحضارية الدستورية الحرة، مرت بتجارب صعبة ومريرة، حتى وصلت إلى التنوير والحداثة العقلية والمعرفية والعلمية، والحداثة السياسية التي

٣- حول الخيار الديمقراطي.. دراسات نقدية (مجموعة مؤلفين)، ص: ١٣٣، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان / بيروت، طبعة أولى لعام ١٩٩٤م.

جعلتها تقدر وتحترم إرادة شعوبها بالدساتير والأنظمة والقوانين النافذة المطبقة على الجميع دون استثناءات..

وتلك الدول لم تتطور وتتمُ بصورة صحيحة لاحقاً بوسائل القوة والقسر والقمع والأوامر العليا، ولا بالبيانات ولا بالتعميمات الجاهزة الصادرة عن «الباب العالي»، بل بالأصول القانونية والمؤسساتية والأنظمة القانونية العلمية الرصينة، وبإعطاء الناس حقوقهم ومكانتهم، وتهيئة الأجواء لمشاركتهم الفاعلة بالحياة السياسية.. وهذا هو أحد مقاييس ومعايير نجاح الدول في مسيرة تطورها السياسي والاجتماعي خدمة لمواطنيها الأحرار المستقلين..

وهي لاشك مسيرة شاقة وطويلة.. مسيرة المعرفة العقلية والتنوير القيمي، وبناء دولة القانون والعدل والمؤسسات.

وكلما كانت هذه الدولة الموعودة المسترشدة بهدي الأخلاق العملية، بعيدة عن القوالب والفردانية والنمطية والحزبية والحالة السياسوية التنظيمية والاختزالية الواحدية.. كلما كانت تجلياتها بعيدة عن التمثل والشخصنة في شيوخ ورموز وقادة وزعماء إلهيين أو شبه إلهيين.

أخيراً، أقول، وقد انتقدني بعض الأصدقاء، لأنني كثيراً ما أركز في حديثي النقدي على سلوكية وأفكار علماء ورجال الدين عموماً، وأركز على نقد التراث:

انتبهوا وافهموا نحن عندما ننتقد رجال وعلماء الدين، ودعاة التدين ورموز الفكر الإسلامي والناطقون باسم الدين، لا يعني أننا نكرههم ونبغضهم، أو أننا ضد مسألة الدين، أو أننا ننتقد الدين ذاته.. كلا، لأن هؤلاء المعبرين عن الدين في النهاية هم في النهاية بشر مثلنا، حتى لو رأينا على رؤوسهم ريشة أو عمامة أو أي شيء آخر.. ونحن ننتقد أفكارهم ووصايتهم ونخبويتهم على الأفراد والناس والمجتمعات.. مع أنهم نسبيون في تفكيرهم وسلوكهم وتحليلاتهم ووعيهم ومداركهم التي تتأثر بظروف الزمان والمكان، وهي عرضة لعوامل «الحت والتعرية» الفكرية والمعرفية والتاريخية.. وقد يخطئون ويصيبون في تأويلاتهم وشروحاتهم وتفسيراتهم للدين.. أما الإسلام، فهو حالة في الفكر والإحساس والممارسة، وهو حالة قد تكون مختلفة كلياً عن أتباعه ورموزه ورجاله..

من هنا، يكون نقدنا لرموز ومشايخ وحركات وخطابات التيارات والحركات الدينية الإسلامية، حالة بناء وتطوير، ومساهمة فكرية في تشخيص لأمراض تلك النخب، وما أكثرها في حالتنا العربية، وفي اجتماعنا الديني الإسلامي.

وكثير من هؤلاء الرموز والعلماء قد يتحولون إلى عقول مغلقة سلفية لا تقبل الحوار وترفض النقد والمساءلة، وقد تعتبر كلامها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق.. ولهذا العقل السلفي الديني المغلق شقيق وحيد هو العقل السياسي المغلق، حتى لو كان علمانيا كاملاً..

إنني أعتقد أن التقوقع حول الذات الجماعية، والقطيعة مع الآخر، ورفض تقبل الحوار، (وليس النقد!)، وادعاء الوصاية الفكرية والسياسية على الناس، واسترهان الكل من أجل الجزء، هي أبرز صفات رجال ديننا السلفيين، والتي يشتركون فيها مع أصحاب العقول السياسية المغلقة اعتقاداً وقولاً وعملاً..

لقد كانت الدولة العربية تاريخياً دولة استبداد وقهر وغلبة، هذا هو الثابت في مسيرة الحكم السياسي العربي والإسلامي غالباً، بينما الطارئ والاستثنائي فيها هو أن تكون دولة عدالة وإنسانية، دولة قانون ومؤسسات.. وحتى لحظتنا الراهنة، التي نمر فيها حالياً بتحولات وتغيرات على شكل اضطرابات وقلاقل ومشاكل وأزمات باتت مصيرية في بلدان ما يسمى بالربيع العربي التي أضحت بلدان الشتاء القارس خاصة في سوريا والعراق واليمن وليبيا - لا تزال الدولة القائمة المهيمنة والمستولية على كل شيء في مجتمعاتنا هي دولة الإكراه والاستبداد التي هي دولة بوليسية تسلطية ظالمة، لم تهتم أبداً بمشروع التنمية الفردي والمجتمعي، ولا ببناء دولة القانون والمؤسسات، بما يعني أن ثقافة بناء الدولة كانت غائبة كلياً عند نخبها، وحتى عند «الفرد-المواطن» الذي تربى في كنفها.. وإن كنا نحمل المسؤول المتصدي لمهمة الحكم والقيادة الوزر والمسؤولية الكبرى في هذا السياق..

إنني أعتقد أن الحرية هي هيكل وأساس بناء أية دولة أو مجتمع، لأنها هي جوهر الوجود، وهي جوهر كينونة الإنسان في هذا الوجود.. ومن دونها لن تقوم الدولة العادلة المنشودة، ولن تحدث أية تنمية حقيقية طالما أنها مستبعدة كفكرة وقيمة وسلوك من قاموس الدولة العربية الحديثة بشخوصها ورموزها ومختلف حركاتها وتياراتها.

صدر حديثا



عوالم انغمار بيرغمان السينمائية

البعدالديني

بقلم: عزالدين الوافي
باحث فني مغربي في مجال الصورة والسينما

ظَلَّ بيرغمان يعتقد أن النور في سماء النرويج دائماً يكون أفقياً، وهو شيء يحمل نوعاً من العجائبي. انشغل بيرغمان بأسئلة الله والفن، الخير والشر، الوعي واللاوعي، ثم الهوس من الموت على مدى خمسين سنة من مشواره السينمائي، هو مسار أسس من خلاله لبحث مضن ودائم حول طبيعة النفس البشرية وحالة اليأس التي يلمها، وهي الميزة الثنائية التي طبعت أفلامه، حيث الصراع القاتل بين ضدين: تأمل فلسفي في وضعية الإنسان في الكون تجاه خالقه وتجاه طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، حيث العلاقات الباردة التي يسيطر عليها عدم التواصل والخوف وعدم الثقة بالنفس.

النصر وحده لله

كان للمسألة الدينية حضوراً قوياً في الأدب وفي الموضوعات الفنية التي تأثرت بالطقوس المسيحية والتوراتية على وجه الخصوص. يبدو أن بيرغمان عقد حواراً لم يكتمل مع الخالق، وهذا يتفق مع التقليد الأرثوذكسي على عكس الدين البروتستانتي الذي يقوم على الاتصال من دون وساطة، حيث تعتبر الحياة فرصة لإصلاح العلاقة مع الله، وليس مجرد صلاة لطلب العفو أو الصفح عن الخطايا.

بين تاركوفسكي وبيرغمان وبونويل

عندما يتعلق الأمر بمسألة الإيمان لدى الفنانين؛

فمن الصعب أن تكون الأمور دقيقة. تاركوفسكي مثلا نظر إلى نفسه على أنه مقدس؛ بمعنى تملكه لتلك القدرة الفنية الهائلة التي لا تشوبها شائبة. في أوروبا مثلا، ليس هناك تمجيد حقيقي لما هو ديني. أما في روسيا، فللإيمان وقع خاص.

من جهة أخرى، أبدى السينمائيون تعلقهم الشديد بالرموز، بالأساطير والصور المنبثقة عن المسيحية مع شعور بالصدق مع النفس، وتعلق بتجاوز وتحدي النفس، وهو ما يجعل التعامل مع ما يسمى بالأنثروبولوجية المسيحية بعيدا عن كل الخيانات والتوافقات مع المسيحية كنسق تاريخي. لقد قال مرة بونويل إنه «ملحد بفضل الله»، بينما ظل بيرغمان يوقع ملفات أفلامه بعبارة «النصر وحده لله»، إنه لمن الحكمة التمييز بين الرجلين.

> كان للمسألة الدينية حضوراً قوياً في الأدب وفي الموضوعات الفنية التي تأثرت بالطقوس المسيحية والتوراتية على وجه الخصوص

لم يكن تاركوفسكي مؤمنا بالمعنى التقليدي، بل كان فيلسوفا حرا، ليس فيلسوفا بالمعنى الذي يعرف الفلسفة، أو يمارس تدريبا خاصا في هذا المجال. في حين كان بيرغمان سينمائيا فيلسوفا، وذلك من خلال بحثه عن مكامن الخطيئة في ماضيه، حيث تمتزج صورة الرب بصورة الأب، كما بحث في المرجعيات المسيحية من خلال التعلم الذاتي الذي مكنه من الغوص في تركيبة لاشعوره الطفولي.

بدا بيرغمان دائماً، بمثابة فنان البعد الديني العميق، وذلك من خلال قدرته الدقيقة على طرح الأسئلة دون انتظار ردود بعينها، مع ما يشبه «السير في ظل الله ». قوبل برغمان بنقد غريب ومدهش في السويد لاتجاهه اللاديني مقارنة مع تدين تاركوفسكي، طبعا مع وجود فارق أساسي بينهما.

لم يشكك بيرغمان يوما في وجود الله، لأن المسألة ليست في الشك، ولكن في اليأس من استحالة فهم نظام هذا العالم، ومكان للإنسان فيه. حاول كل من برغمان وبونويل اكتشاف مناطق وسياقات مرتبطة بفكرة الله وبالديانة المسيحية. حاول برغمان تحقيق ذلك من خلال إعادة تصحيح صورة الله، صورة طالما عذبته في طفولته، أي استبدال صورة إله قاهر وقاس بصورة أخرى، وبالتالي فقد تقاطع مع بونويل من حيث إعلانهما الواضح عن «الحادهما» ورفضهما التام للمسيحية، غير أن الأمر لا يتعلق برفض صورة الله بقدر ما هو رفض للقيم التي تمثلها المؤسسات الدينية القريبة من النظام والسلطة، والتي كانت في مجملها قاهرة ومحافظة وتدفع غالبا نحو الإحساس بالذنب.

من أجل تصحيح صورة الله

انطفأت شمعة بيرغمان يوم ٣٠ يوليو (تموز) من سنة ٢٠٠٧، حيث ترك خلفه حوالي ٤٥ فيلما منذ سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٨٤. تأثر الرجل تأثرا بالغا بكل من الكتاب المقدس، وبحكم كونه كان بروتيستانتيا، فقد عانى من تعاليم مارتن لوثر التي يقول فيها مثلا، «يجب أن نحب الله ونخشاه في نفس الوقت». حضر عاملا الدين والتدين في مسيرته بقوة، لكنه سعى أن يجعل من الدين شعارا للمحبة، وليس فقط أهوالا للتعذيب والتخويف.

سينما الحميمي

انشغل بيرغمان بالتفكير في قضايا شائكة تهم الإنسان الغربي المعاصر، والذي تحاصره إشكاليات وجودية مرتبطة بالوحدة، بالخجل وبضياع الإيمان أو بعدم القدرة على التواصل، وخصوصا بين الرجال والنساء أو بين الآباء والأطفال، كما برز ذلك من خلال فيلمه «مشاهد من الحياة الزوجية» سنة ١٩٧٣، وهي الأعمال التي أبرزت مدى حاجة الإنسان للخروج من جهل ذاته أولا، ليستطيع التواصل مع الآخر، وذلك عبر إيجاد ألفاظ وعبارات تدل فعلا عما يخالجه. فقد حمل تلك الأسئلة على الشاشة من خلال البحث في المتخيل الديني المسيحي، وهو الذي طالما اعتبر حسب البعض ناكرا لوجود خالق للكون.

في فيلم «المرآة» مثلا، يبرز برغمان إلى أي حد ابتعد الإنسان عن الممنوع المؤسس، ليسقط في الارتباك والحيرة، بل الإحساس بالغموض تجاه معاني الحياة ودلالاتها، والتي تحضر من خلال حوارات الشخصيات. فالأب وكارن ومينوس يتحدثان عن لحظات الفراغ واليأس من الحياة التي تسكنهما، والتي عليهما ملؤها بنوع من الإيمان. يقول الأب: «أحتاج للأمل في الحياة وكأنني سأتحرر حينها من حكم صادر ضدي بالموت». إننا إذن، أمام سينما الحميمي بامتياز، حيث وضعيات الشخصيات النفسية والقلقة، حيث الهشاشة النفسية أهم بكثير من كل الأفعال الدرامية.

> انشغل بيرغمان بالتفكير في قضايا شائكة تهم الإنسان الغربي المعاصر، مرتبطة بالوحدة، بالخجل وبضياع الإيمان أو بعدم القدرة على التواصل

عن رؤية برغمان

تتميز رؤية بيرغمان بالنزعة الإنسانية، فضلا عن كونها تمثل ما يمكن أن نسميه بـ «الفيلموسوفي»؛ أي توطيد علاقة النزعة الفلسفية في تفسير الظواهر الاجتماعية والإنسانية باللغة والانشغال السينمائيين.

استطاع بيرغمان أن يخلق لنفسه أسلوبه الخاص به في نحت شخصيات ومواضيع ملتصقة ببعضها، حيث تتنازعها ميولات متضاربة تظهر خلفية وحضور ثقافة التحليل النفسي ليونغ، وذلك من خلال تشكيل شخصيات يطحنها القدر لتقدم أمامنا في أدق تفاصيلها الوجدانية والوجودية. ونلمس ذلك عبر إبراز علاقات تائهة ووجوه متعبة تقترب منها

الكاميرا من خلال كادرات مكبرة تعكس حجم الخوف والعذاب الذي تعيشه، كما نلاحظ ذلك في الفتاة المتزوجة كارن في فيلم «المرآة».

وجد بيرغمان نفسه أمام حاجزين أساسيين: حاجز الممنوع الديني والبروتستانتي تحديدا، ثم حاجز الصمت البرجوازي. تتميز فيلموغرافية برغمان بثنائية صارخة تتجاذبها قوتان. من جهة، هناك علاقة غامضة بالله وهي صورة قاسية وقاهرة ترسخت في وجدانه، وشكلت علاقته بالآخر والمجتمع، ومن جهة أخرى، محنة التسلح برؤية نقدية شفافة وسوداوية حول العلاقات بالأسئلة الكبرى للإنسان.

يذهب بيرغمان بعيداً، عندما يحاول الاقتراب

من مظاهر الحمق أو الخبل كما في فيلم «رهاب» لدى بعض شخصياته، والتي تظل مسكونة بهاجس البحث عن أجوبة حارقة لحقيقة ضائعة بين مسارات تستلزم إعادة اكتشاف الذات أولا، وهو المسار الذي استفاد منه من خلال عشقه الأول للمسرح كركح يعرف لعبة الكشف والمواربة بين الأقنعة وبين صراع الخير والشر، والخوف من الموت، وقد كان ذلك تبريرا لشغفه وإخلاصه لرموز المسرح المؤسسين وخصوصا سترمبرغ، وبرانديلو، وشكسبير، وتشيكوفن وموليير.

غوص في أفلامه

اعتبر بيرغمان من أعظم المخرجين العالميين الذين أخذوا على عاتقهم تصوير الوضع الإنساني البئيس في أحط تجلياته.
تمكن بيرغمان بنبوغ وفطنة من النفاذ لعمق الأحاسيس الداخلية لشخصياته التي تعاني من قصص حب فاشلة، وتخاف من أشباح غير مرئية تعذبها.

لقد تعامل مع مساره بنوع من الوحي الكوميدي والهزلي الذي يذكر بأسلوب وودي آلن الذي تأثر به. أدرك بيرغمان أن به عيوبا كثيرة وسوء حظ في حياته مما جعله يدمج ذلك في جل أفلامه؛ منها وأهمها «رغبة أنا»، وهو عمل يشبه إلى حد بعيد فيلمه «العار»، وهناك من يعتبر الفيلمين عملا متداخلا، حيث إن الممثلتين سايدو وأولمان هما تقريبا نفس الشخصية.

في فيلم «العار» الذي يرمز إلى الصراع الداخلي عبر حرب من المشاعر المتناحرة والرغبة في المقاومة من أجل العيش، يظل فيلم «رغبة أنا» فيلما دقيق الصنعة يجمع فيه بين متعة الوصف ولغة التصوير المعبرة.

يعتبر هذا الفيلم أول فيلم حول الحرب لبيرغمان، وهو ميزته الأولى، غير أن قلة من الناس يدركون أن ذلك هو موضوعه الذي يتميز بنوع من القسوة تجعل المشاهد يحس أحيانا باللامبالاة. إن انسياب القصة يتحقق بشكل مذهل ويشتغل على البلاغة البصرية وعلى المجاز.

لم يتم من قبل تصوير أولمان وسايدو تحت نفس الإنارة؛ فالإطارات المكبرة على الوجوه وتحديقهم المباشر في الكاميرا كانت حقيقة ممتعة، حيث كانا يبدوان وكأن لا حياة لهما أو إنهما فقدا الأمل في الإنسانية. إن المشهد الأخير لأولمان راقدة وتنظر إلى الكاميرا، وهي تحكي عن حلم رأته من أبهى وأروع اللقطات التي تسكن عين المشاهد حينما يقطع المشهد على السواد.

جمع بيرغمان بين حبه للمسرح والتلفزيون والأوبرا، ووجه أضواءه لحيثيات العلاقة المرتبكة بين الأزواج كما هو الحال في مسلسل «مشاهد من زواج»، وهو عبارة عن بسط للحظات من علاقة بين ممثلته المفضلة فاني وممثله البطل ألكسندر.

> وجد بيرغمان نفسه أمام حاجزين أساسيين: حاجز الممنوع الديني والبروتستانتي تحديدا، ثم حاجز الصمت البرجوازي

في فيلمه الثاني «النظر من خلال زجاج مظلم»، والحائز على جائزة أوسكار، وأول ثلاثية في تعامله مع عدم اليقين في الإيمان، وهو في الواقع مختلف تماما عن الأفلام التاليين، إذ يتمحور موضوع الفيلم حول مرض كارين العقلي كموضوع رئيس، ومع ذلك، فإن مرضها يجعلها تثير الشكوك حول الله وحول نفسها، بل حول أحبائها.

وهذا هو أول فيلم لبيرغمان تم تصويره في جزيرة «فارو» التي أصبحت شعبية جدا، بعد جعلها موقعا لتصويره للعديد من أفلامه، والتي أطلق عليها منذ ذلك الحين (بشكل غير رسمي) جزيرة بيرغمان. وتقدم الجزيرة نفسها بنوع من الخوف من الأماكن المغلقة، والتي هي بيئة مثالية لقصة نفسية في متناول اليد، حيث الطبيعة الخانقة تكون معادلا موضوعيا للتعبير عن بعض مشاعرالخوف، والاستياء التي تنتاب جل شخصياته.

يعبر الفيلم عن بحث الإنسان عن الله، ليكون تجسيدا للمحبة، فالتنقيب عند بيرغمان في حالة الإنسان النفسية هو مجرد بداية وليس نهاية.

يعتبر فيلم «السجن» فيلمه السادس (١٩٤٠)، وكالعادة فهو فيلم ممسرح، حيث إن عنوانه يلعب دورا في معنى الفيلم. هو سجن ولكن ليس بمعنى الحبس للمجرمين، وإنما حبس النفس داخل الجسم البشري. إنه فيلم مظلم للغاية وينبه إلى طبيعتنا القاتمة في عالم يصعب التنفس فيه، وكأنه جحيم كبير.

الانتحار من بين المواضيع المذكورة دائما، وفي هذا المكان - السجن - الذي تطارد فيه الهواجس والوساوس ضمائرنا، ولا يكون هناك مكان آخر يستحق العيش غير هذا الجحيم. هنا يريد الشخص أن يتحرر من هذا السجن، حيث تظهر رؤية بيرغمان الرائعة في التجريب، وهو لا يزال في بدايات هذه المرحلة المبكرة في حياته المهنية. ننتقل من شخصية لأخرى عبر محطات، بما في ذلك تسلسل الحلم، حيث تتأسس طبقات مجازية وغنية في لغة بيرغمان، وهو يستكشف الخوف من الخلوة، والسعي المستمر للاتصال البشري بجميع أشكاله. ندرك ذلك ليس فقط من خلال نزوع البطل الانتحاري، ولكن أيضا من خلال صديقته بريجيتا كارولينا (التي ترغب أيضا في تواصل ما عبر ممارستها قسريا للبغاء). يمثل فيلم «السجن» أحد روائع بيرغمان، ويمكن اعتباره أفضلها.

المراجع:

١. Olivier Assayas, Stig Bjorkman, Conversation avec Bergman, Cahiers du Cinéma ١٩٩٠

٢. Joseph Marty, Ingmar Bergman, une poétique du désir, Cerf ١٩٩١

٣. Ingmar Bergman, Les meilleures intentions, Gallimard ١٩٩٢

٤. Ingmar Bergman, Entretiens privés, Gallimard ١٩٩٧



المؤتمر السنوي الثالث
2015

" الديـــن والشرعيّــة والعنــف "

عمّان - الأردن
4 - 5 سبتمبر 2015

لمن يرغب حضور المؤتمر يرجى زيارة الموقع الألكتروني الخاص بالمؤتمر

http://mominoun.com/seminaire/blog_single.php

ملاحظة:

- يتحمل المشارك نفقات تذكرة السفر والتأشيرة، والمواصلات، والفندق، مع الاستفادة من وجبات الغذاء أثناء المؤتمر.
- تتكفل المؤسسة بإرسال دعوة رسمية لاحتياجات التأشيرة إن لزم الأمر.

للاستفسار والحصول على المزيد من المعلومات، يرجى التواصل على العنوان الإلكتروني التالي: *annualconfrence@mominoun.com*



الروائية السورية لينا هويان الحسن لـ «ذوات»:

لا يمكن للأدب أن يرمّم الدمار لكنه يفضحه

حاورها: إبراهيم الحجري
كاتب وناقد مغربي

ولدت الأديبة والصحفية السورية لينا هويان الحسن بتاريخ ٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧م، في بادية حماة التي تنتمي إلى قبيلة الجْميلة القيسية التغلبية. قضت جزءا كبيرا من طفولتها في البادية السورية، وتلقت مرحلتها الابتدائية هناك، وقد كان لذلك، أثر كبير على اتجاهها الأدبي عموماً، وعلى طبيعة الكتابة الروائية لديها بصفة خاصة. ثم انتقلت إلى دمشق، في ما بعد، لمتابعة دراستها الجامعية في تخصص الفلسفة.

حررت لينا هويان الحسن متراكمها الطفوليّ وذاكرتها بالبادية السورية في شكل روايات؛ مكرسة لها عدة أعمال، مثل «معشوقة الشمس»، و«مرآة الصحراء»، و«بنات نعش»، و«سلطانات الرمل»، و«رجال وقبائل». وتُعد الكاتبة من أوائل من كتب عن عوالم البادية السورية وصحارى الشرق الأوسط، حيث امتدت خريطة اشتغالها السردي على جغرافيا امتدت إلى بوادي وصحارى الأردن والعراق ونجد.

اشتغلت في مجال الصحافة منذ عام ٢٠٠٣ في صحيفة «الثورة» السورية، في القسم الثقافي، وأشرفت على «ملحق الكتب» الأسبوعي، حتى نهاية عام ٢٠١١. لكنّها غادرت سوريا عقب أحداث الربيع العربي، وما عرفته سوريا من تبعات وأحداث، لتقيم في بيروت وتواصل عملها الحر في الصحافة العربية، حاملة معها جرح الوطن ومآسي الشعب السوري، حيث تفجرت تلك الأحاسيس في شكل كتابات ذات نفس درامي مؤثر، جعل من الكاتبة تعيش مرارة الأحداث التي تعرفها بلادها، وتعبر عنها أكثر من كثير ممن يعيشون هناك، وسط براكين النيران.

وعلى الرغم من صغر سنها، فقد عززت المكتبة الروائية العربية بذخيرة سردية ممتعة ومتميزة. منها: «معشوقة الشمس » رواية، ١٩٩٨، «مرآة الصحراء» كتاب توثيقي عن البدو ٢٠٠٠، «التروس القرمزية » رواية، ٢٠٠١، «التفاحة السوداء» رواية، ٢٠٠٣، «بنات نعش» رواية، ٢٠٠٥، «سلطانات الرمل» رواية، ٢٠٠٩، «رجال وقبائل»

كتاب توثيقي عن أعلام البادية السورية، ٢٠١٣، «نازك خانم» رواية، ٢٠١٤، «ألماس ونساء» رواية، ٢٠١٤.

تتميز كتابة لينا هوينا الحسن من خلال أعمالها الروائية الصادرة لحد الساعة، بالعمق في تناول الموضوعات السردية، وحسن اختيارها، حيث تركّز على قضايا الإنسان الجوهريّة المغرقة بالأحاسيس الفيّاضة، مثلما تتصف بحسن البناء الفني، ذاك أنها تكتب بوعي شكلي، وتنوع من أساليب السّرد، وفي الوقت نفسه، تحرص على أن تظل قريبة من قاع المجتمع، ومن التربة التي تنتمي إليها.

وشكلت قضية المرأة شغلا شاغلا لكتابتها السردية، إلى جانب قضيّة البداوة، وأحلام أهل الأرياف ومعاناتهم، مقوّضة بذلك، فكرة أنّ الرّواية جنس خلق لاحتضان عوالم المجال الحضري، وشساعة المدن وتعقّد علاقاتها المتشابكة. كما أنّ كتابتها الرّوائية، وإن كانت لا تولي للتجريب أهمية قصوى، بحكم أنها تميل إلى البساطة والتلقائية، فهي تجنح إلى اختيار أدوات فنية وأساليب صوغ متميزة تجعل أعمالها تجمع بين القضية الفكرية، والتميز الفني. وقد زاد تكوين الكاتبة في تخصص علمي النفس وعلم الاجتماع الفلسفيين من قدرة الكتابة السردية لديها على استغوار أعماق الشخصيات، وبنائها بناء يليق بطبيعة الرؤية الفكرية التي يرومها العمل الروائي.



*** اعتبر كثير من المهتمين الرواية جنساً أدبيا لصيقا بالمدينة العصرية، لكونها فضاء معقدا متشابك العلاقات، ومكتظاً بكثافة سكانية تحرض على التفاعل غير المسبوق عكس البادية أو الريف. وقد قمت بتفنيد هذا الزعم من خلال مراكمتك لأعمال جيدة انصرفت إلى البادية، مشخّصة تفاصيلها المتشابكة. هل تعتقدين بأنّ الرواية، من خلال تجربتك، جنس عابر للأمكنة والأزمنة؟ وكيف؟**

إن الرّواية رداء فضفاض، يسمح لنا بإنجاز الزيّ الذي نريده، الرّواية أكثر جنس أدبيّ ينسجم مع فكرة الحرية، أن تكون حرا باختيار أسلوبك وانتقاء مفرداتك وترتيب كلماتك. كل شيء مسموح لك في سبيل أن تنجز نصك، لتشيّد من خيوط الخيال شيئا من الحقيقة. للأمكنة سحرها، يمكن للصحراء أن تلهمك نصا أيضا يمكن للبحر أن

إن الرّواية رداء فضفاض، يسمح لنا بإنجاز الزيّ الذي نريده

يفعل ذلك، والقصر، والكوخ، والعراء... يمكن للنص أن يستنطق الأمكنة والأزمنة. أيضاً في الأدب مباح لنا أن نستخدم كل ما بين أيدينا من أدوات، يمكننا أن نوقد شعلة الحداثة من خلال قراءة مغايرة للتاريخ وللدين وللتراث. الرواية جنس منفتح على الأجناس، تتسع لتحضن كل ثقافة الكاتب واتجاهاته وتجاربه ومقروئه... تفسح له المجال خصبا كي يجول في خيالاته وأشواقه وذاكرته... ويستعيد أزمنة غابرة عاشها أو لم يعشها، اطلع عليها في بطون الكتب أو سمعها عن الناس أو راودته في الأحلام. ما يميز الجنس الروائي هو هذا الملمح الذي يجعل منه خلاصة كل الأجناس وزبدتها، فهو يحضن الشعر، مثلما يحضن المسرح، والجغرافيا والتاريخ وأدب الرحلات والفلسفة والسوسيولوجيا والسير والأغاني واللهجات والأساطير... كل هذا الجماع بمقدور الروائي توظيفه بشكل يخدم النص، ويجعله حيا بصيغة جديدة تبتعد عن التكرار وإعادة ما قيل.

*** تنتصر كتابتك الروائية للأنوثة ولقضية المرأة في كثير من جوانبها وأبعادها، هل حققت- في نظرك- الكتابة النسائية في هذا الباب، الغرض المقصود منها، وهو الارتقاء بوضعية المرأة في العالم العربي؟**

الأدب يحفر مجراه بأناة ودقة؛ أي يمكن للنصوص على المدى البعيد أن تسهم في التغيير، إنه سحر التراكم الذي يصنع الأشياء، بينما السياسة هي التي تُحدِث التغييرات الكبرى في المجتمعات والأدب يصوب المسارات.

لا أكتب تحت وطأة إيصال رسالة من أجل حالة ما، أكتب لصالح الحرية، حرية الفرد وحريته بالاعتقاد والإبداع وبإعلان رأيه دون خوف. وبهذا المعنى أيضا، الرجل مظلوم، وبالتالي المرأة ضحية عنف السلطة والمجتمع والدين والرجل. معظم الروايات التي تكتبها المرأة يمكن اعتبارها من مسرودات الأدب الحذرة، هذا الأمر يعتبر ميزة لصيقة بغالب الكتابات النسائية لعقود طويلة، أقول الغالب وليس الكل، فصوت نوال السعداوي من الأصوات المضادة تماما لتابوهات تحذرها المرأة عادة، كذلك غادة السمان. لكن في السنوات العشر الأخيرة تميزت الكتابات بجرأة أكبر، أيضا أصبح للمرأة ذائقتها الأدبية، ويمكنها أن تكتب من جهة، وأن تحكم على ما تقرأ من جهة أخرى؛ أي إن المرأة امتلكت حسا نقديا، رغم أن هذا الحس مُصادَر عادة من قِبل الرجل، وأنا شخصيا تعرضت لهجمة نقدية شرسة من قبل الصحافيات وليس الصحافيين؟؟! أي تكلمن نيابة عن الرجل وقيّمن نساء رواياتي بصوت ومنطق ذكوري متسلط؟! باختصار، الرحلة طويلة أمام المبدعة العربية، لأنها لم تخرج بعد من قفص الأحكام المسبقة.

عملت على تطويع اللّغة السردية لأجل كتابة النص الذي يتماهى مع البلسم الشافي للجرح السوري المفتوح

*** كثير من الكاتبات العربيّات يجعلن قضية الصراع بين الذكورة والأنوثة موضوعة أساسية لمشروعهن الأدبي، بل وارتبطت شهرتهن بهذا النوع من الكتابة. هل تعتقدين أن الرهان على جزئية معينة كهاته رهين بخلق الإضافة النوعية للرواية العربية أم إن الروائي يجب أن يفتح أفقه الأدبي على العالم الإنساني برمته؟**

لم أكتب وفق هذا المنطق، فرواياتي تتكئ على الحدث التاريخي. في روايتي «بنات نعش» مثلا، كان تواطئي واضحا مع البطل الأبهر سعدون، رغم أنه شخصية نرجسية واستبدادية. لا أخضع نصي لمثل هذه الصراعات، إنما أنقل واقع علاقة



الرجل بالمرأة في مجتمعاتنا بموضوعية كبيرة، ولهذا تأخذ شكل الصراع بين الذكورة والأنوثة، وهذه أمر لا يمكن تجاوزه لدى كتابة عمل روائي يستند لواقعنا. كتبتُ عن الصحراء ومجتمعها، لكن ذلك لم يمنعني من الانتقال إلى المدينة والكتابة عن عوالمها، الأدب وثبة تجاه القادم، والقادم لا بد أن يتمثل بهيئة أفق فسيح لامحدود. الأدب لا يعرف قط اليقينيات، منطقه قائم على المحاولة والتجربة والتنويع.

*** جربت الكتابة عن الوطن وقضاياه من جغرافيات أخرى بعيدة عنه. كثيرون جربوا ذلك من قبل، لكنك تكتبين عن وطن تصلك شظايا احتراقه. كيف يمكن للكتابة- مثلما تمارسينها روائيا- أن ترمم صدعا يشرخ الروح والوطن معا؟ وهل يمكن أن نصنف كتاباتك ضمن ما سماه البعض بالأدب المهجري الجديد؟**

بكل ما أوتيت من صبر وجهد بحثيّ، عملت على تطويع اللّغة السردية لأجل كتابة النص الذي يتماهى مع البلسم الشافي للجرح السوري المفتوح. لا يمكن للأدب أن يرمم الدمار، لكنه يفضحه. أكتب دون أن أتوقف عند التصنيفات، أكتب ما يمليه علي الظرف والخيال لصالح لعبة الأدب. سابقا كتبت عن المهمش والمضمر، في تاريخ البادية السورية، من خلال عدة نصوص استذكارية من خلالها حاولت استعادة الأبعاد التاريخية للبادية السورية، ومع رواية «نازك خانم»، كتبت عن عالم مختلف تماما. أمقت التشابه، أحاربه في نصوصي، وفي رواية «ألماس ونساء»، كتبت عن عوالم غير مطروقة بالمطلق في الأدب السوري سابقا، للجغرافيا غوايتها، فالجغرافية مكان، والمكان تاريخ، وللتاريخ هيبة وسطوة وسحر؛ أي كل ما يلزم الأديب ليكتب.

*** وجد كثير من الروائيين الحداثيين ضالتهم في التاريخ والذاكرة الإنسانية والزمن المنفلت؛ لكن لكل منهم أسلوبه في التعامل مع المادة التاريخية الجاهزة. أما أنت، فتنصرفين إلى التقاط صدى التاريخ المنسي، من خلال قراءة الثقوب العالقة بين فجوات المعطى. كيف يتهيأ لك ذلك؟**

وحدها الرواية كجنس أدبي، تتيح لنا التحايل على التاريخ وعلى الموروث، وعلى الماضي، تمنحنا حبالا قوية، تتيح لنا سحب الماضي إلى منطقة

جديدة صالحة لكل أشكال التناول النصي. الكلمة بحد ذاتها ريشة فنية قابلة أن تحمل أي لون لتضعه أنى تشاء، الكتابة هي أكثر الفنون التي تعتمد على لعبة خلط الأوراق، وتقنية التمويه، بغاية صنع النص الذي نريده، وعند ما نتعمد أن يكون «التأريخ» كومبارسا ضروريا لنصوصنا، فهذا يعني أننا نريد كتابة النص المحايث للحقيقة، لكن الحقيقة في لبوس الأدب. بفضل الكتابة السردية، نستطيع أن نستلهم مادتنا من التاريخ والذاكرة، مثلما نستطيع أن نتصرف في المادة المعطاة بقصد تحيينها. فالروائي لا يكتب التاريخ وليس مؤرخا، لكنه قادر على ملء ثقوبه، وإضاءة مناطقه المعتمة. الروائي تعجبه ظلال التاريخ، وعتماته، لأنها تتيح له أن يتخذ منها فضاء للعب المتخيل. وإذا كان المؤرخ تستوقفه الأحداث والمنعطفات الكبرى، فإن الروائي تستوقفه التفاصيل والاستطرادات الشاردة في حكاية التاريخ، لذلك يظل يطاردها خلف الملامح مستقرئا الدلائل والظلال والآثار... إنه يرصد بحس تخييلي أثر هاته الأحداث الكبرى في قيعان المجتمعات، وفي نفسيات الإنسان المعايش للحظة التاريخية.

> الكتابة هي أكثر الفنون التي تعتمد على لعبة خلط الأوراق، وتقنية التمويه، بغاية صنع النص الذي نريده

*** جئت إلى الأدب من الفلسفة بشتى تفرعاته، هل لهذا التخصص العلمي أثر إيجابي- في أعمالك الروائية- على استبطان سيكولوجية الشخوص، وتوظيف الجوانب الأعمق في الفرد ولا وعيه وذاكرته، وشعوره ولا شعوره، وأناه وأناه الأعلى، في جعل المتن الروائي أقرب إلى المتلقي؟**

الفلسفة، سؤال يشبه ذلك السؤال الذي طرحه أبو الهول على السندباد كشرط أساسيّ، ليعبر نهر النيل: أن يجيب على كل أسئلته. لتكتب لنا النجاة، إذن علينا أن نختار الإجابات الصحيحة. عندما نسأل، نبلبل العالم، نخضّه، وإذا لم نعثر على الإجابات الصحيحة، سينتظرنا مصير غامض. الفلسفة أضاءت لي خارطة السؤال، وكل النصوص التي نكتبها هي بمثابة إجابات تستدعيها الأسئلة الخطرة.... أتاحت لي الفلسفة بتشعبات اتجاهاتها، إحكام الرؤية والرؤيا المؤسسين لفعل الكتابة. لا يمكن أن نكتب إذا لم ننطلق من سؤال كبير تشتق منه أسئلة صغرى، تكون في مجملها متمحورة حول الإنسان. أفادتني الفلسفة كذلك، خاصة في شقيها السيكولوجي والسوسيولوجي، في معرفة كيفية استبطان الشخصيات، ورصد ملامحها، وبنائها وفق المنظور المنتقى، ومعرفة أسلوب تشييد العلاقات بين الفرد ومجموع الأفراد، وبالتالي بين الشخصية الرئيسة من جهة، وباقي الشخصيات الثانوية التي تؤثث معها المحكي من جهة ثانية، وهكذا يتأتى للرواية أن تصير مجتمعا مصغرا، تتعقد فيه العلاقات، وتلتبس، وتتنامى تماشيا مع الرؤية المؤسسة لفعل الكتابة، والأسئلة المؤطرة لهاته الرؤية.

*** يذهب ميشال بوتور إلى أن الرواية الجديدة ما عادت تكتفي بالموهبة في السرد وصنعة الكلام وتخيل الأحداث وإثارة القارئ... بل غدت بحثا بكل ما تحمل الكلمة من معنى؛ هل تتفقين مع هذا الرأي؟**

أتفق تماما مع هذه النظرة للرواية، لكن هذا يفترض أن يتواءم معه النقاد، أي الانتباه إلى ضرورة الخروج عن مسلمات الخطاب النقدي، حتى لا يتحول النقد إلى قوالب قديمة متعالية، يُقرأ على ضوئها النص الجديد. كما يفترض أن تكون للروائيين جرأة وشجاعة على تخطي المألوف من الأشكال والموضوعات المطروقة.

فالرواية، من هذا المنظور، لم تكف معها الموهبة والتمكن من اللغة على أهميتهما، بل أصبح الروائي ملزما بصناعة عوالمه، وفق مشروع هندسي مفكر فيه بإتقان... ومع توالي تجاربه في الكتابة، تتحقق له إمكانيات متزايدة وتتغذى قدراته ومهاراته، فيمتلك حرفية تخول له التحكم أكثر في عوالمه الروائية تماما مثل الباحث في مجالات العلوم الإنسانية والعلوم الحقة، الذي تتطور أدواته بالموازاة مع تراكم التجارب والأعمال التي يقوم بها. فضلا عن الموهبة التي هي أساس لكل خلق فني، يحتاج الروائي إلى أدوات بحثية تمكنه من جمع المواد والمعطيات التي تغني عمله، مثلما يحتاج إلى إمكانات لوجستيكية تساعده على السفر والتنقل بغرض الظفر ببعض المعطيات التي يحتاجها والمراجع المؤسسة لمشروعه الروائي.

*** تعتبر روايتك «ألماس ونساء» التي بلغت القائمة القصيرة في جائزة البوكر للرواية العربية في دورتها الأخيرة، رواية الزمان والمكان بامتياز على اعتبار أنها تناولت زمنا يغطي ما يناهز سبعة عقود، كما أن أحداثها وقعت في مدن تنتمي إلى ثلاث قارات. ما دلالة هذا التوسع الزمكاني؟ وكيف تأتى لك عجن هذه المادة السردية بالصورة المتناغمة التي يظهر عليها البناء الفنيّ؟**

استخدمت مفردة موفقة وذكية في سؤالك هي «العجن»، فلكل أديب خبزه، من مباهج كتابة الرواية هي طريقة استعمال أدواتنا، وحريتنا بالنفخ على نارنا، نؤججها تارة، ونخمدها تارة أخرى، لنضمن خبزا يحظى برضى شتى المذاقات، ولا أقول كل المذاقات، فالقراءة أذواق، عندما نكتب نأمل أن نحظى بأكبر عدد ممكن من القراء، وهنالك قرّاء قد لا نحظى بهم، لأنهم مفطورون على نكهات أخرى غير النكهات التي عرفناها.

أسعى من تجربة روائية لأخرى إلى تنويع موضوعاتي وأساليبي في صوغ العوالم التخييلية، وأن أوسع من مجالات الانتماء للهوية الكوكبية. فأنا أكتب لكل إنسان على الأرض، بل أكتب الجانب الإنساني فيه حيا وميتا. أحلم في كل كتابة جديدة بأن تصبح الأرض كلها ملكا لعالمي الروائي، وبأن يصير تاريخ البشرية زمنا لمتخيلي الروائي. لكي تكتب رواية بمذاق إنساني، لا بد أن تعرف الأرض كلها، وتفهم مشاكل الإنسان في شتى الجغرافيات الثقافية والبيئية دون التفريط في هوية الانتماء لمناخ ثقافي معين، وخريطة جغرافية محددة.

لقد تحقق بفضل الجوائز الأدبية انتعاش فعل التلقي، ورواج الأعمال، وتداول الأسماء الجديدة في عالم الكتابة الروائية

*** طغى صوت السّارد الرّئيس على صوت السّاردين الثانويين، وندر صوت الشخصيات. هل اخترت هذا الأسلوب انطلاقا من وعي بخصوصية المادة السردية المعروضة في الرواية، أم إن التماهي مع روح الحكي فرضت سلطتها عليك أثناء الانغماس في طقس الكتابة فكان ما كان؟**

أعتنق أسلوب «الحكي» كأسلوب مفضل للسرد، لأنه يتيح للكاتب الإمساك بدفة السرد بدقة. لكن ذلك يظل أسلوبا واحدا بين عدة أساليب أخرى قد يلجأ إليها الأدباء؛ فالمسألة مسألة خيار خاص بالكاتب. وربما لأني قرأت نص ألف ليلة وليلة مبكرا من عمري، وقبل أن أبدأ بالكتابة بزمن طويل ظهرت مؤثرات شهرزاد «الحكاءة» على نصيّ. ففضلا عن كون هذا الأسلوب في الحكي يمنح إمكانية التحكم في العوالم الروائية، حتى لا تتوه في حمى الانتدابات وتكاليف رواة متعددين، فهو أيضا ينسجم مع طبيعة الخطاب في العمل

الروائي من حيث الدلالة التي يهيمن عليها منطق الصراع بين أن تكون أو لا تكون، بين السلطة والرغبة، بين الحرية والاستبداد، بين التموقع والتخفي، بين الوجود والضياع. يهمني، في هذا الأسلوب، أن أرى الكائنات التي أصنعها تخييليا تتحرك دون أن تحس بمراقبة رواتي لها، وتعيش بحرية من لا يزعجه ضوء ما. وبذلك يتأتى لي أن أرصدها سرديا في أقصى حالات تماهيها مع المعيش في تشعباته.

*** عرفت الرواية مؤخّرا حركيّة وانتعاشا كبيرين في العالم العربيّ كتابة وطبعا وتداولا، خاصة بعد تزايد عدد الجوائز المشجعة للكتابة الروائية، ألا يراودك تخوف وهواجس من أن تؤدّي الجوائز إلى نتائج عكسيّة كتنميط موضوعات الكتابة مثلا، وتراجع المستوى الفنيّ، أم إنّها ستلعب دورا إيجابيا في تطوير الكتابة في العالم العربيّ؟**

بطبعي، أرى النصف الملآن من الكأس، لهذا سأركن للشق الإيجابي من المسألة، وأقول إن الجوائز ظاهرة صحية تنعش فن الرواية. نحن بوصفنا عربا، نعيش تحديا حضاريا كبيرا، والأدب هو مقياس الحضارات، لهذا أبرّر كل ما يصب في صالح انتعاش الكتابة. خصوصا في ظل هجمة تخلف وظلامية تخيم على المنطقة، لا ضوء دون الكلمات.

لقد تحقق بفضل الجوائز الأدبية انتعاش فعل التلقي، ورواج الأعمال، وتداول الأسماء الجديدة في عالم الكتابة الروائية، وتحرك الاهتمام النقدي والإعلامي، وساد نوع من التنافسية والدافعية على الكتابة الروائية تحديدا، وازداد اهتمام دور النشر بالرواية... وكل هذا لا يمكن إلا أن يسير في اتجاه تشجيع الكتابة والقراءة وما يرتبط بهما من قيم جمالية وإنسانية تقرب الإنسان من جوهره، وتبعده عن متاهات الصراع والتمزق والتطرف والعنف.




صدر حديثا


علي مبروك
الإمامة والسياسة
الخطاب التاريخي في علم العقائد
المركز الثقافي العربي
مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders



باحثون ومثقفون يطالبون بتشكيل أرضية خصبة للتوعية الفكرية

إعداد: منى شكري
إعلامية أردنية

نبّه

باحثون ومثقفون عرب من مواصلة نهج «التهميش» للثقافة والمعرفة من خلال فصل التنمية المعرفية الثقافية عن التنمية الشاملة للدول العربية وعدم إيلاء حكوماتها أهمية للارتقاء بالإنتاج المعرفي، إذ إن العلاقة بين التنمية والمعرفة دينامية، مبينين أن واقع المعرفة العربي يعاني «العطب» في ظل ضحالة إنتاج المعارف الإنسانية على اختلافها، وقلة إنتاج الكتب والإصدارات الفكرية والبحوث العلمية مقارنة بالعالم الغربي.

وأكد الأكاديميون الذين استطلعت مجلة «ذوات» آراءهم في سؤال هذا العدد: «كيف نرتقي بإنتاجنا المعرفي؟»، أن الإنتاج المعرفي «مرآة الشعوب» ودليل على تقدمها أو تأخرها، مطالبين بتضافر الجهود والعمل المشترك بين المؤسسات المختلفة الرسمية والخاصة للارتقاء به.

ودعوا المؤسسات المعنية للبدء بحملة تنمية مجتمعية، لتشكيل أرضية خصبة للتوعية الفكرية، لتنمو فيها وتتشكل المعارف على تنوعها، منوهين إلى أن الترويج للمعرفة في مجتمع يعمّه الجهل «نوع من العبثية».

وأوضح المثقفون، أن الطريق للارتقاء بالمعرفة يتمثل في توفير بيئة حاضنة لها، من خلال تجاوز الوسائل التقليدية في التعليم والمعتمدة على التلقين، وتحفيز طلبة المدارس منذ المرحلة الأساسية على التدبر والتفكير والبحث، فضلاً عن تدريسهم مساقات المنطق والفلسفة، والفنون المختلفة لصقل مهاراتهم وتفريخ أجيال تنتج معارف فعالة وخلاقة.

وشدد الباحثون على أهمية القراءة، باعتبارها جسراً للعبور للمعارف، لكنها القراءة التي تتخذ من الحياة المعرفية والعلمية أسلوب حياة، حتى لا يبقى الإنتاج المعرفي «حبيس أدراج التعبير»، وإنما يرتقي بنا لواقع أفضل.

كما طالبوا بدعم الإبداع والمبدعين والباحثين، وتوفير مناخ من الحريات لتنمو فيه الإنتاجات الفكرية والعلمية، وتجنب نزيف العقول للغرب، ورفع مستوى الإنفاق على البحث العلمي، مشددين على أهمية دور الإعلام في رفد الواقع المعرفي والفكري، وضخ الثقافة والمعارف على اختلافها.

قنصوه: القراءة في عالمنا العربي لون من ألوان الترف والتفاخر الثقافي أكثر من كونها أسلوب حياة منتج معرفياً

الإنتاج المعرفي حبيس أدراج التعبير

أهم الأسس التي يرتكز عليها أستاذ الفلسفة السياسية - جامعة طنطا بمصر الدكتور ياسر قنصوه للارتقاء بالمعرفة هي القراءة؛ فهي منهج وفعل ارتقائي؛ أي منهج في الفهم، وفعل يتأسس على فهم كيفية الإنتاج المعرفي والارتقاء به، منوها إلى أن من الأخطاء الشائعة الاعتقاد أن القراءة مجرد رغبة أو وسيلة لشغل وقت الفراغ أو للإلمام بجانب معرفي معين.

ويتابع: لا نبالغ إذا قلنا إن القراءة في عالمنا العربي «لون من ألوان الترف والتفاخر الثقافي» دون النظر إلى كونها أسلوب حياة منتجة معرفياً، فالعربي، وفق قنصوة، يقرأ «للمعرفة المحدودة بشأن محدد أو للمتعة»، وسواء أكان يستمتع بفعل القراءة أم لا، فإنه «لا يتخذ» من القراءة أسلوباً للحياة المعرفية والعملية، ومن هنا يظل الإنتاج المعرفي «حبيس أدراج التعبير» الذي يعد المدخل الواقعي للتغيير إلى الأفضل؛ أي الارتقاء المعرفي.

ويرى قنصوه، أن المشكلة هي أننا حين نضبط أنفسنا متلبسين بفعل القراءة، وفي نطاقات محدودة يتكدس فيها من يشار إليهم بالمثقفين، فإن الأمر لا يخرج عن كونه تراشقاً لفظياً في صور بلاغية ونقاشات فضفاضة تتبارى فيها النخب المثقفة، ليعلن الواحد منها قراءته المختلفة لا لتشكيل تعددية تروم وحدة في التنوع أملاً في صنع تيار معرفي قادر على تقديم إبداعه المتجدد، إنه لا يعدو كونه تعبيراً عن ذاتية مفرطة في تأكيد الأنا المتجاوزة للأنوات المثقفة الأخرى، وهنا تكون القراءة ملكية خاصة تشير إلى التفرد والتميز المعرفي.

إن القراءة، بحسب قنصوة، فعل ثقافي (تواصلي) يتشارك فيه حتى أولئك ممن لا يعرفون القراءة، حيث تكون المهمة لدى القارئ إضافة رصيد معرفي يمكن انتقاله وتواصله وتطويره عبر الآخرين. ومن خلال هذه العملية، يمكن تطوير آليات القراءة والفهم لتأسيس نهج معرفي يختزل هذا النوع من القراءات المتعددة والمتنوعة (أفقياً) في قراءة (رأسية) لديها القدرة على الحفر المعرفي الذي لا مفر منه للصعود إلى أعلى؛ أي الارتقاء.

ويوضح الباحث أننا نبحث عن أسلوب متطور للقراءة في عالم عربي، يسمع كثيراً ولا يقرأ إلا القليل؛ ومن ثم، لسنا في حاجة إلى أن تمثل القراءة (كماً) من القراء يزيد أو ينقص بقدر ما يشكل (كيفاً) يحمل وعياً بالقراءة من أجل التغيير والإفصاح لا المتعة والخرس المعرفي.

ومحاولة الارتقاء المعرفي من خلال القراءة مرهونة بعاملين مؤثرين، وفق قنصوه: الأول؛ القراءة ارتقاء معرفي كفعل تواصلي يتشارك فيه الجميع دون تخصيص أو تمييز لفئة يطلق عليها قراء بمعنى الجدارة بالفهم والاستيعاب. أما الثاني، فالارتقاء نهج معرفي لديه أدواته المتطورة على نحو مستمر، وهي التي تجعل القراءة منهجاً يمكن التعويل عليه في الإنتاج المعرفي.

عدناني: العلاقة بين الارتقاء المعرفي وبين الإنتاج الفكري مرتبطة بمدى الحرية التي يتمتع بها المجتمع



الإنتاج المعرفي مرآة الشعوب

ترى الباحثة والأكاديمية المغربية الدكتورة إكرام عدناني أن تراجع الإنتاج الفكري بالعالم العربي واقع تعيشه الدول العربية، ويدخل في إطار التراجع والتخلف الذي عاشته وما تزال تعيشه على مستويات عدة منذ قرون خلت. وتشير الإحصاءات إلى وجود فراغ وفقر مدقع لإنتاج المعارف الإنسانية والكتب والإصدارات الفكرية مقارنة مع العالم الغربي، وهو ما يدق ناقوس الخطر بخصوص هذه المسألة وخاصة أن الإنتاج المعرفي مرآة الشعوب ودليل على تقدمها أو تأخرها.

ويتطلب الارتقاء بالإنتاج المعرفي، بحسب عدناني، تضافر الجهود بين الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني والمجتمع ككل، كما يتطلب رفع نسبة الاستثمار في المجال العلمي ورفع مستوى الإنفاق على الأبحاث الفكرية والعلمية، وهو ما تغفل عنه حتى الدول العربية الغنية.

وتبين الباحثة أن الارتقاء بالإنتاج المعرفي لن يتم دون الارتقاء بمستوى التعليم، والذي يحتاج إلى تجاوز الطرق التقليدية، والمتمثلة في الاعتماد على التلقين والحفظ بدل الإنتاج المعرفي، وهو ما يجعل الدول العربية وكبريات الجامعات والمعاهد خارج التصنيف العالمي لأفضل الجامعات العالمية على مستوى الإنتاج العلمي والمعرفي.

وتشير عدناني، إلى العلاقة الوثيقة بين الارتقاء المعرفي وبين الإنتاج الفكري المرتبط بمدى الحرية التي يتمتع بها المجتمع، حيث إن الرقابة على الإنتاج الفكري لها دور في تراجع العديد من الباحثين عن الاستمرار بأعمالهم المعرفية والفكرية خوفاً من تعرضهم للاعتقال والمحاسبة. وهذا بدوره يقود إلى هجرة الكفاءات العربية للخارج بفعل التضييقات، وبفعل البطالة وما يواجهونه من صعوبات، وعدم إيجاد مناخ ملائم لاستمرار أبحاثهم وإنتاجهم الفكري.

وترى الباحثة، أنه لا يمكن فصل التنمية المعرفية عن التنمية الشاملة للدولة العربية، ولا يمكن فصلها أيضاً عن تنمية كل القطاعات الاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية، وهو ما يعني أن الهدف التنموي يجب أن يتحول إلى هدف عام قادر على الاستمرارية والتطور.

وتقول عدناني، لابد أن نعترف أن العديد من المفكرين والباحثين لا يمتلكون الجرأة الفكرية والمعرفية التي تجعلهم يخوضون بالدراسة والتحليل في بعض المواضيع التي تعتبر من «الطابوهات»، وهذا ما يفسر وجود التناقض بين ما هو نظري وما هو واقعي، وهو ما يتطلب التجديد في التراث والانفتاح على العلوم الحقة وكل مجالات البيولوجيا والتكنولوجيا، والتي تعتبر جزءاً من الثورة المعرفية التي سبق وشهدها العالم الغربي، وبشكل أصبح معه الإنتاج العلمي والمعرفي أحد أبرز مظاهر القوة في عالم اليوم.

الأطرش: ضحالة المعرفة العربية مرتبطة بالانحدار الثقافي عامة، وهو عائد إلى غياب دور وزارات الثقافة في الوطن العربي



ضحالة المعرفة العربية والانحدار الثقافي

من جهتها، تتساءل الروائية الأردنية ليلى الأطرش مستنكرة كيف نتوقع صعوداً فكرياً وعلمياً وإنتاجياً في فترة عصيبة كالتي نعيشها؟، فعجلة التطور ترتبط بالاستقرار والأمن والإحساس بالأمان مع المستقبل. الجيل الجديد يتملكه الخوف من القادم في ظل الظروف العامة التي تعصف بالوطن العربي منذ سنوات؛ ولم يعد منبع الخوف التدخل الخارجي فحسب، بل ومن الأفكار والانقسام والطائفية وغياب العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص.

كل ما سبق، أفرز وفق الأطرش، «العنف الجامعي والاتكاء على العشيرة والأصول والمنابت، بدلاً من فكرة الأحزاب والتجمعات الطلابية القائمة على الفكر والمقبلة على المعارف المختلفة»، كما أدت سيطرة فكر معين على مناهج التعليم في العقود الماضية إلى غرس ثقافة التمييز بين الجنسين في المدارس، ثم سيطرة سياسة تعليمية تلقينية بدلاً من إعمال الفكر، وحذف منهج المنطق والفلسفة من المدارس وحصة القراءة وتنمية المواهب التي تنمي المعارف، وتكسب الطلبة مهارات التفكير، وتصقل مواهبهم وتفرخ أجيالاً منتجة وفعالة وواعية ومفكرة.

ومن هنا تدعو الأطرش للارتقاء بمعارفنا إلى أهمية إعادة تدريس الفلسفة في الجامعات ليس كمساق اختياري، بل إجباري، مشددة على ضرورة مراقبة سياسات التعليم في المدارس التي تملكها الجماعات الدينية، مهما كانت ملّتها لأنها، «تغذي الطائفية أحياناً»، وهذا بدوره يحد من فتح الآفاق للانفتاح على الآخر، ومراجعة السياسات التعليمية العربية، لغرس قيم التعايش والحوار وقبول الاختلاف بجميع أشكاله.

وترى أن ضحالة المعرفة العربية مرتبطة بالانحدار الثقافي عامة، وهو عائد إلى «غياب» دور وزارات الثقافة في الوطن العربي، لافتة إلى أن غالبيتها «بلا رؤية، وتشكو من الترهل الإداري والفكري، وتوظف من لا علاقة لهم بالثقافة، بل غالبيتهم يفتقر للمعرفة».

كما تحيل الأطرش الانحدار المعرفي والثقافي أيضاً، إلى تراجع دور الروابط واتحاد الكتاب، فقد سيطرت عليها «أمراض الساحة الثقافية من الشللية والتراضي والتنفيع»، فضلاً عن تراجع دور النقد العربي بإهمال الصحف اليومية للثقافة وقرارها بحجب المكافآت المالية عن الكتاب فيها.

وتنوه إلى أن هذا التهميش للثقافة والمعرفة «متعمد»، مستنكرة تكرار حديث المؤسسات المختلفة عن تنمية اجتماعية وسياسية؟ وكيف يتشدقون في الحديث عن تنمية ليس أساسها التنمية الثقافية والمعرفية؟!

كما تنوه إلى أنه لا بد من توفير الكتب لجميع المواطنين بسعر رخيص جداً، وفي المحافظات قبل المدن الكبرى، وتشجيع الفنون خاصة المسرح والدراما، وتخصيص ساعات بث في الإعلام العربي على اختلافه للبرامج الثقافية التنويرية التي تقود إلى المعرفة بطريقة مشوقة بعيدة عن الحوارات المحنطة، وبهذا نسهم، ولو قليلاً، في إصلاح «العطب» الذي يسود المشهد العام.

ربابعة: الحديث عن الارتقاء المعرفي يتطلب المساهمة في إنتاجها، ثم امتلاك الثقة الكافية للدفاع عنها ونشرها



المعرفة قيمة إنسانية عليا

الباحث وأستاذ اللغة العربية في جامعة فيلادلفيا، الدكتور الأردني يوسف ربابعة، يعود إلى تعريف المعرفة، وهي مشتقة من الفعل «يعرف»، وتشير - كما هو معروف - إلى القدرة على التمييز أو التلاؤم، وتشمل كل ما هو معرف أو مفهوم؛ أي إنها الرصيد المعرفي الناتج عن البحث العلمي والتفكير الفلسفي والدراسات الميدانية والتطوير والمشروعات الابتكارية وغيرها من أشكال الإنتاج الفكري للإنسان عبر الزمان، وتتمثل جميعها في الرصيد المعرفي، أو الكم المعلوم القابل للاستخدام في أي مجال، وهي تشمل المعرفة الظاهرة، التي تعني كل ما يمكن التعبير عنه باللغة وأشكال التعبير الرياضية؛ كالمعادلات والأدلة والكتابات المختلفة، وهذا النوع من المعرفة قابل للانتقال بسهولة بين الأفراد بشكل معلن. والمعرفة الكامنة، وهي المعتقدات والاتجاهات والمدركات والقيم الذاتية النابعة من التجارب الشخصية للإنسان، وتمثل مفاهيمه وتجاربه وخبراته المختزنة داخله.

ومن هنا، فإن الحديث عن الارتقاء المعرفي يتطلب، وفق الدكتور ربابعة، المساهمة في إنتاجها، ثم امتلاك الثقة الكافية للدفاع عنها ونشرها، بوصفها معرفة مفيدة قادرة على إقناع الآخرين بجدواها، ولذا فإن أية معرفة لا تصل إلى مستوى إنساني تكون غير قادرة على الاستمرار، فضلاً عن قدرتها على الارتقاء، كما تحتاج إلى مجتمع يؤمن بها ويقدر قيمتها.

ويشير الباحث إلى بعض خطوات، تمكننا في العالم العربي من الارتقاء بالمعرفة التي نمتلكها، ومنها: تعظيم المعرفة بوصفها قيمة إنسانية عليا، والارتقاء بالمجتمع، ليكون قادراً على تقدير قيمة المعرفة وأهميتها في حياته، والبحث عن المعرفة القابلة للحياة في المجتمع العربي، وبخاصة المعرفة الكامنة في الإنسان، والتركيز عليها، وبث الروح فيها، من أجل امتلاك الثقة بجدواها وفائدتها للذات والغير، والتركيز على المعرفة التي ترق إلى المستوى الإنساني، وأن خلاص الإنسانية ومستقبلها مرهون بمدى انتشار معرفتنا لديهم.

وينوه ربابعة إلى أن الارتقاء بالإنتاج المعرفي يحتاج إلى الوسائل المتطورة التي تسهل مهمة نشر المعرفة وتعميمها، وهذه الوسائل تبدو في متناول اليد اليوم، ويمكن الاستفادة منها على أكمل وجه في عالم التكنولوجيا.

الظفيري: يجب أن نبدأ بتوعية فكرية مجتمعية لأجل ضمان الترويج للإنتاج المعرفي



الترويج للفكر وسط الجهل نوع من العبثية

ويرى الناقد والأكاديمي العراقي الدكتور أحمد الظفيري أن «الإنتاج المعرفي» مصطلح عام، ولا يمكن تخصيصه بعلم معين، إذ إن المعارف واسعة وقابلة للزيادة.

وعلى الجانب المعرفي الخاص بالأدب، يبين الظفيري أنه من المهم أن نبدأ بتوعية فكرية مجتمعية لأجل ضمان الترويج للإنتاج المعرفي، إذ إن الترويج للفكر والثقافة والأدب في مجتمع يعمّه الجهل «نوع من العبثية»، ولهذا يقع على عاتق الحكومات البدء بحملة

واسعة للتنمية المجتمعية، وغالباً ما تتم عن طريق المؤسسات التربوية ومنظمات المجتمع المدني والمراكز الثقافية.

من جانب آخر، فإن للإعلام، بحسب الظفيري، دوراً أساسياً في رفد الواقع المعرفي والفكري، كونه يبعث رسائل شاملة للأفراد، قد تكون سلبية في كثير من الأحيان، لذا عليه النهوض بواجبه في ضخ الثقافة والمعارف على اختلافها وتسليط الضوء على المبدعين؛ فذلك يعطي نتائج أكثر فاعلية في جعل الثقافة والمعرفة أعمق رسوخاً في مجتمعاتنا.

ومن العوامل التي تعطي نتائج مثمرة في ترويج النتاجات المعرفية هي مؤسسات الطباعة والنشر والتوزيع، إذ يجب التركيز على فكرة إعادة الوعي للاهتمام بالقراءة، ويقصد هنا قراءة الكتاب الورق تحديداً، بكونه يفتح أفقاً أكبر، ويعطي فسحة لتدوين الملاحظات والتركيز بصورة أكبر، برأي الباحث، وقيمة الكتاب مهمة أيضاً؛ لأنها تؤسس لإقامة «المكتبة المنزلية» التي تعد الرافد الأهم في بناء الوعي الفردي، ولو ساهمت بعض الشركات برعاية نشاطات ثقافية ومعرفية بطريقة الترويج «الراعي الرسمي»، سيعطي ذلك حافزاً كبيراً للمؤلفين وللقراء على حد سواء.

عطاري: الارتقاء بالمعرفة يتركز على اهتمامنا بمنهاج تربوي وتعليمي سليم يقودنا إلى مجتمع الوعي والمعرفة



تحفيز الطلبة على التدبر والتفكر

من جهته، يعتبر الشاعر والكاتب الفلسطيني عبد السلام عطاري هذا السؤال الهاجس الدائم للمفاعيل الحقيقية المنشغلة بالهمّ الثقافي الجمَعيّ، المؤسس على حالة الإبداع الفرديّ، وهو سؤال يؤرقنا ويؤرق كل مهتم ومُدرك في ألفية «الفيس بوك» ألفية «الديجتال» والمعاملات الرقمية، التي تجتاح المعرفة، وتصيبها أحياناً بمقتل من منطلقات تخص مساسها بالوعي الذي نحتاجه، ونحن نواجه حالة التغريب ومدخلاتها المشوهة لثقافتنا العربية والإسلامية، تلك الثقافة التي أسست للإنسانية معرفة ما زالت تبني عليها وتراكم تقدمها، ونحن للأسف خذلناها وتجاوزناها نحو الهبوط، لذلك ومنذ أن أصبحت نطاقات الشبكة الإلكترونية هي وسيلة إدراج ومخاطبة ونشر، حملت ما حملته من ظواهر معرفية أكيدة بجمالياتها، كما حملت أيضاً مخاطر، فهي وسيلة تواصل واتصال تحمل في طياتها ما هو إيجابي إذ تعاملنا معها لتسهيل ما يَصعب، لكنها تقود إلى ما هو سلبي في حال اعتمدناها الوسيلة التي تؤسس لكل ما تحمله أنها معرفة ووعي وإدراك.

وينبه عطاري إلى أنه من المفاعيل الثقافية الحريصة على سلامة الإنتاج المعرفي الذي يغذي الوعي السليم، أن تدرك هذه المخاطر من خلال الدقّ على جدران مؤسسة التعليم الحكومية وغير الحكومية بضرورة سلامة منهجها ومناهجها، والتركيز على نوع ما تحمله حقائب الطلبة، وتحديداً في مراحل التعليم التأسيسي أو الإلزامي، وكذلك التركيز على نوعية التعليم التشاركي والابتعاد عن التلقين، وذلك بتحفيز حديقتنا الخلفية لمجتمعنا؛ أي الطلبة، على التدبر والتفكير وليس نمطية الحفظ والتلقين، إذا أسسنا هذه «الحديقة» الحقيقة بمعرفة سليمة بالتأكيد، سنرث وعياً عظيماً في مجتمعاتنا. لذلك، فإن الارتقاء بالمعرفة يتركز على اهتمامنا بمنهاج تربوي وتعليمي سليم، يقودنا إلى مجتمع الوعي والمعرفة.


صدر حديثا


محمد يوسف إدريس
الغفران
في الأديان الكتابية
المركز الثقافي العربي
مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث



بقلم: أحمد العمراوي
باحث تربوي وشاعر مغربي



العادة وتغيير مسار الشخص

العادات إذا بنيت بشكل يعتمد الإقناع العقلي والمنطقي ثم الوجداني بعد ذلك؛ فإنها ستحقق ربحاً للفرد والجماعة. وقديماً قال المتنبي: «لكل امرئ من دهره ما تعودا». وقد يصعب تغيير العادات التي ستصبح أعرافا، لدرجة قد تغير حتى المبادئ الأصلية دينية كانت، أم وضعية. تصير العادة عرفاً متعارفاً عليه، وقد تتحول مصدراً للتشريع كما هو الشأن عند المالكية. «فقد كان الإمام مالك من المتوسعين في الأخذ بالحديث لنشأته بالمدينة... وكان كثيرا ما يبني أحكامه على أدلة للعقل فيها مجال خصيب كالاستحسان والاستصحاب والمصالح والذرائع والعرف والعادة»[1].

ستربط العادة بالآخر إذن، بعد أن انطلقت من الذات، ولنُذكّر بالعادات الثلاث الأولى:

١. كن سباقا إلى المبادرة؛
٢. حدد هدفا قبل كل شيء؛
٣. رتب أولوياتك.

وهي عادات تدخل في خانة النصر الشخصي. فهل يكفي ذلك لبناء الشخصية؟ سيبقى الأمر ناقصاً، ما لم يخرج إلى النصر العام من خلال ثلاث عادات أخرى، هي:

٤. فكر رابح/رابح؛
٥. افهم أولا، قبل أن تسعى لإفهام الآخرين؛
٦- اعتمد التكاثف.

١- محمد سلام مذكور، مدخل الفقه الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص: ٤١

هـي تصـورات ذهنيـة للتبـادل والتواصـل مـع الآخريـن بشـكل سـليم، لأن ربـط النجـاح الـذاتي بالنجـاح الجماعـي أمـر لا بـد منـه في كل عـصر، وخاصـة في زمننـا هـذا، حيـث التكتـلات الاقتصاديـة والاجتماعيـة محليـا وعالميـا أصبحـت ضرورة قصـوى ومـن الأولويـات.

توصـف مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية بمـا نطلـق عليـه: «ازدواجيـة الشـخصية». فالمبـادئ في وادٍ، والتطبيقـات العمليـة في وادٍ آخـر. نحـن نذهـب للصـلاة كل جمعـة، ثـم نأخـذ رشـوة، أو نسـب شـخصا بـكلام سـفيه، أو نـسرق أو نـزني... عـادات وعـادات نعيـش تناقضهـا، فتؤثـر عـلى الجماعـة قبـل الفـرد.

أشـارت بعـض التقاريـر المختصـة مؤخـرا إلى أن نسـبة ٨٠ ٪ مـن المغاربـة هـم متدينـون، وبالمقابـل نـشرت بعـض الصحـف إحصائيـات تبـين أن المغاربـة يسـتهلكون الخمـر أكـثر مـن الـدول الأوروبيـة، وقـد يحتـل هـذا السـائل المرتبـة الثانيـة مـن الاسـتهلاك بعـد المـاء وقبـل الحليـب، فلنتأمـل هـذا الوضـع؛ نحـن متدينـون ولكـن كيـف؟ وبمـاذا؟ وبـأي مقيـاس؟

في كتابـه المثـير: «العـرب وجهـة نظـر يابانيـة» يـبرز الكاتـب اليابـاني نوبـوأكي نوتوهـارا[٢] عـدة تناقضـات يعيشـها الإنسـان العـربي، موضحـا الهـوة بـين المبـادئ والممارسـات، وهـو الـذي قـضى أزيـد مـن أربعـين سـنة بمختلـف البلـدان العربيـة بمدنهـا وبواديهـا؛ فالعالـم العـربي حسـب هـذا المراقـب الأجنبـي مشـغول بفكـرة النمـط الواحـد في الشـكل والملبـس، حيـث يغيـب مفهـوم المواطـن الفـرد، وتحـل محلـه فكـرة الجماعـة المتشـابهة المطيعـة للنظـام السـائد. والنـاس في العالـم العـربي، حسـب هـذا الخبـير، يسـتنتجون أفكارهـم مـن خارجهـم، بينمـا يسـتنتج اليابانيـون أفكارهـم مـن الوقائـع اليوميـة ويضيفـون حقائـق جديـدة، والعـربي يكتفـي باسـتعادة الحقائـق الـتي اكتشـفها في المـاضي البعيـد. والأفـراد بذلـك، يظلـون أفـرادا ولا يشـكلون جماعـة مؤثـرة.

إنهـا عاداتنـا الـتي ترعرعنا عليهـا، فجعلت الشـخصية مزدوجـة ومطمئنـة في ازدواجيتهـا. نتبجـح بالوحـدة ونحـن في تشـتت، والتضامـن والتـآزر لا يحصـل إلا في الذهـن. حـب الـذات مسـيطر علينـا، وأنـا وبعـدي الطوفـان، أصبـح شـعار الصغـار في المـدارس، إلا مـن رحـم ربـك.

٢- نوبوأكي نوتوهارا، العرب وجهة نظر يابانية، منشورات الجمل، ٢٠٠٣

الربح المشترك يحقق التعاون والتضامن، ويقضي على الأنانية الضيقة ولكن دون إلغاء للذات

يمكـن أن يتصـف الفـرد بميزة اتخاذ المبادرة والسـبق إليهـا، ويمكنـه أن يكـون مـدركا لهدفـه مـن الحيـاة، وقـد يرتـب أولوياتـه ولـو بشـكل جـزئي، وهـي العـادات الأولى مـن العـادات السـبع الـتي تحـدث عنهـا سـتيفن كـوفي، ويمكـن الرجـوع للأعـداد السـابقة مـن مجلـة «ذوات» للاطـلاع عليهـا، ولكـن هـذه العـادات تبقـى ناقصـة، إذا لـم تتعـزز برؤيـة واضحـة للآخـر، انطلاقـا مـن الـذات، وهـذا مـا تـبرزه العـادة الرابعـة.

العـادة الرابعـة: فكـر رابح/رابـح، أو المكسـب / المكسـب

تنطلـق هـذه العـادة مـن الـذات في علاقتهـا بالآخـر، كيـف عـلي أن أكتسـب موقفـا ذا بعـد جماعـي لا يلغـي الـذات؟ فكـرة المكسـب/المكسـب ترتبـط بالمجـال الاقتصـادي الحديـث الـذي يعـني، ولـو نظريـا عـلى الأقـل، التفكـير بالمنفعـة للجميـع. فمـا هـو موقفـي مـن المثيـل أثنـاء التنافـس؟ كيـف عـلي أن أفكـر في الآخـر في حالـة النجـاح؟ في حالـة الفشـل؟ قـد تكـون الـروح التضامنيـة أو مـا نطلـق عليـه الـروح الرياضيـة أهـم صفـة تمـيز المتمتـع برؤيـة واضحـة لنفسـه وللآخريـن، وعـلى العمـوم، فهنـاك جملـة مواقـف تحـدد رؤيـتي للآخريـن، يمكـن تلخيصهـا اسـتنادا إلى سـتيفن كـوفي كالآتي:

والمكسـب/ المكسـب ليـس تقنيـة، بـل فلسـفة كاملـة للتفاعـل البـشري، وهنـاك سـتة تصـورات ذهنيـة للتفاعـل الإنسـاني هـي: المكسـب/ المكسـب. - المكسـب / الخسـارة. – الخسـارة/ المكسـب. – الخسـارة/ الخسـارة. – المكسـب. – المكسـب/ المكسـب أو لا اتفـاق[٣].

وهـذه التصـورات تخضـع لعوامـل شـتى بيئيـة ونفسـية وتربويـة ودينيـة وغيرهـا، ولعـل تفكـير المنفعـة للجميـع هـو السـلوك الصحـي الـذي سـيقضي عـلى الانفعـالات السـلبية. ويقصـد بـه «الاتفاقيـات أو الحلـول

٣- ستيفن. آر، كوفي، العادات السبع للناس الأكثر فعالية، مكتبة جرير، ط:٢١، ٢٠٠٩، ص: ٢٤٤



التلميذ في حاجة للإقناع، لذلك فهو يحتاج إلى إطار ينظمه، والعادات السبع هي إطار سلوكي تحتاجه مدارسنا داخليا، وخارجيا

التي تعود بمنفعة مشتركة وتحقق رضا الجانبين، حيث يرى الجميع أن الحياة ساحة تعاونية لا تنافسية، وقوة المومبدأ لا قوة الموقف هي الأساس هنا، والمكسب المكسب هو الإيمان بالبديل الثالث. فلن يسير الأمر وفقا لأسلوبي أو أسلوبك، بل سيسير وفقا لأسلوب أفضل، وأسلوب أعلى[٤].

الربح المشترك يحقق التعاون والتضامن، ويقضي على الأنانية الضيقة ولكن دون إلغاء للذات. والشخصية هي أساس مبدأ رابح / رابح، وهناك ثلاث سمات شخصية أساسية لتحقيق التصور الذهني لهذا المبدأ، هي: الأمانة والنضج وعقلية الوفرة[٥]، هو مبدأ يحتاج إلى تدريب وجهد كبير، ليترسخ كعادة لمسيرة الفرد.

إن مجموعة الأفراد هي ما يكون الجماعة، ولن تحقق مصلحة الفرد إلا داخل الجماعة، والغير هو جزء من الشخص. والنصر الشخصي الخاص مرتبط بدائرة النصر العام والتفكير، انطلاقا من الآخر دون إلغاء للذات أو مسخها هو ما سيحقق الشخصية المتوازنة مع نفسها ومع محيطها. والإنسان كائن اجتماعي تتحكم فيه الأنا الجماعية، وتسيطر على غرائزه الأنا الفردية. أغلبية وأقلية، كل يتحكم حسب السياق. وحسب فرويد في كتابه مستقبل وهم، فإنه «يستحيل الاستغناء عن تحكم الأقلية في الجموع، ويستحيل، بالمثل، الاستغناء عن الإكراه الذي تفرضه الحضارة. وبالفعل، فالجموع مجردة من الحياة والذكاء. وهي لا تحب التنازل عن الغرائز، ولا تقتنع بحجج تحيل إلى الضرورة، فيذوب الأفراد المكونون للجموع في بعضهم البعض، ملغين بذلك أي احتكام للنظام»[٦]. الطبع والتطبع. والعرف عادة تتحكم في الجماعة قبل الفرد. وتأثير الآخر سلبا أو إيجابا من سمات مجتمعاتنا.

«يقال دائما إن الفرد في المجتمعات المغاربية لا وجود له إلا داخل انتماءاته الثقافية والاجتماعية والدينية. وهذه الانتماءات تشكل العلاقة الاجتماعية في هذه التجمعات.. ونحن نجد أن قيمة التضامن تدخل في إطار ثقافي ما زال حاضرا، يجعل الفرد غير شاعر بالوحدة. ولكنه حين يتحول إلى عائق أمام الاختيارات الشخصية، وحين لا يجعل الفرد قادرا على تحديد اختياراته، فإنه يكبل الحرية، وينمي حالات الخوف، ويعرقل كل المبادرات الشخصية»[٧]. أما زال هذا الطرح قائماً الآن؟ في مدارسنا خاصة؟ «هناك مبادئ عامة للتعليم، وهناك إجراءات وتطبيقات خاصة؛ وهناك قواعد، والتلاميذ هم أفراد. لكل واحد منهم حالته الخاصة. ما نقوم به مع تلميذ ليس هو ما سنقوم به مع آخر. أليس هذا ما تتطلبه التربية؟ هناك من التلاميذ من يتطلب منا الانتباه إليه أكثر من الآخرين، حيث يجب معالجة وضعيته بطريقة بيداغوجية نوعية بسبب بطءٍ أو هشاشةٍ أو عقد لديه»[٨]. فهل تتحقق هذه العادة بمدارسنا؟

التعليم الجمعي والمنفعة للجميع

التلميذ في حاجة للإقناع، لذلك فهو يحتاج إلى إطار ينظمه، والعادات السبع هي إطار سلوكي - في نظرنا - تحتاجه مدارسنا داخليا (داخل الذات)، وخارجيا (المحيط). المواد والمقررات الدراسية تنظم الذهن وتبني المعارف، فهل هذا كاف لبناء الشخص؟ إن المرجعيات هي بمثابة قانون يناقش من خلاله سلوك المتعلم. والمدرسة تكون التلميذ والطالب معرفيا وتربويا، وقد يكون الجانب التربوي أهم المعارف على الطريق، كما قال الجاحظ، من المعرفة، ما دامت المعرفة تولد السلوك، هذا صحيح، ولكن طريقتها ورؤيتنا لها وترتيبها هي الأهم في تعليمنا الجمعي الذي نادرا ما يراعي الفرد وفروقاته داخل الجماعة. ولعل وضع عقد ديداكتيكي وبيداغوجي مع التلميذ، سيكون وسيلة فعالة للتغلب على صعوبات كل تعلم.

٤- المرجع نفسه، ٢٤٤

٥- نفسه، ص: ٢٥٦- ٢٦٠

٦- أنتنيلو أرمندو، التربية والتحليل النفسي، ترجمة عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، ط:١، ٢٠٠٥، ص: ٧٣

٧- Jalil Bennani. Un psy dans la cité. Entretiens avec Anmed EL Amraoui. ED: La croises des chemins. ٢٠١٣. P: ٥١

٨- Ibid; p١٣٧.

هنـاك علاقـات متعـددة نسـقية داخـل وخـارج الفصـول الدراسـية. علاقـات تلميذ/تلميـذ. وعلاقـات تلميـذ أسـتاذ؛ والرابـط هـو تكويـن الشـخص مـن خـلال المعـارف. معـارف حـول الـذات والعالـم أساسـها العيـش بسـلام داخـل الجماعـة. في علاقـة تلميـذ/ تلميذ، يقتـضي الأمر وضع استراتيجية تعتمـد النسق، بمـا أن كل تلميـذ هـو بمثابـة حالـة خاصـة. كل فـرد هـو متفـرد وربـح للآخـر، ووجـود ٢٥ تلميـذا في فصـل دراسي يعـني التعامـل مـع ٢٥ تجربـة. لـكل فـرد فضاؤه الخـاص والحميمي الـذي لا يمكـن الاقـتراب منه إلا عـن رغبـة مـن هـذا الآخـر جسـديا ونفسـيا. وحريـة التعبير تبقـى أساسـية هنـا. التقـاء عاطفتيـن قـد يشـكل تضامنـاً أو تصادمـاً أو تنافـراً تبعـا لرؤيـة الشـخص ومـا تعـوده. وعـلى كل واحـد أن يجـد مكانـاً له بـين المجمـوع، للتغلب عـلى المشـاكل التواصلية. فمـا هـو دور التلميـذ سـلوكيا؟ تتلاطـم العواطـف وتتحـول إلى سـلوكيات تكـون أحيانـا ضـد التلاميـذ في مـا بينهـم، وتـارة في تصـادم أو تـلاؤم بينهـم وبـين المدرسـين. والجماعـات الصغـيرة في مـا بينهـا داخـل الفصـل، قـد تتصـارع مـع جماعـات أخرى مماثلـة بشـكل تنافـسي حـاد أو بـروح رياضيـة؛ وتبقـى المبـادئ هنـا أهـم موجـه. ونعـني العـادات المرتبطـة بالتصـور الذهـني للنـصر الخـاص وللنـصر العـام.

> إن طرائقنا واختياراتنا المنهجية هي المسؤولة عن هذا التناقض الذي يظهر من خلال حالات اللاتضامن التي تحدث في المدرسة والمجتمع

«قد يلعب الطفل تجاه المعلم دور الطفل الضعيف الذي يحتاج إلى احتضان ورعاية، أو العكس دور الطفل المتمرد الذي يثير العداء في تكرار السيناريو الأسري... وللمعلم أيضا السيناريو الأسري الخاص به»[٩].

إن ما يحصل على مستوى التحصيل الدراسي هنا، يحصل على مستوى التكيف السلوكي، ومن ثم وجب الانتباه لمختلف التحالفات التي تحدث هنا بشكل واع أو بلا وعي. «وتكمل العلاقات الصفية بين الأتراب حلقة التفاعل في انعكاساتها سلبا وإيجابا على صحة التلميذ النفسية، وعلى تكيفه وتحصيله. بمقدار ما تكون تجربة إيجابية مع أترابه، وبقدر ما يحظى بالقبول والانتماء إلى جماعة الرفاق المتكيفة، تقوم عملية تعلم اجتماعي منمية ومعززة للتلميذ: يحب المدرسة والدرس بفضل القبول والانتماء من الرفاق، والعكس صحيح بالطبع»[١٠].

الاقتراب من المتعلم يحقق المنفعة للجميع

استناداً إلى العينات التي نشتغل عليها، قمنا بتركيب استمارة حول العادة الرابعة: فكر رابح/ رابح، وزعناها في فترات متقاربة على مجموعات محددة لمتعلمين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و١٧ سنة ذكورا وإناثا للاستئناس وجس النبض، حسب ما تأتى لنا، فقمنا بالاستبيان التالي:

٩- مصطفى حجازي، الصحة النفسية، منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، المركز الثقافي العربي، ط:٣، ٢٠٠٨، ص: ٢٢٧

١٠- المرجع نفسه، ص: ٢٣١

استبيان فكر رابح رابح

الرقم	السؤال	دائما	أحيانا	قليلا	أبدا
١	الآخر لا يعني لي شيئا				
٢	أفكر في نفسي أولا قبل الآخرين				
٣	إذا ربحت فلا يهمني أن يربح الآخرون أم لا				
٤	أفكر في إرضاء الآخرين قبل إرضاء نفسي				
٥	أشعر بارتياح حين أقوم بمساعدة صديق لي				
٦	يعجبني العمل داخل مجموعة				
٧	أفضل العمل الفردي على الجماعي				
٨	يعجبني أن أحصل على الرتبة الأولى دائما				
٩	أشعر بأنني فاشل وسأبقى فاشلا				
١٠	أشتكي إلى الأستاذ أو الإدارة إذا شعرت بالظلم				
١١	أحس بربح كبير إذا ربح الآخرون وخسرت أنا				
١٢	إذا ربحت أنا فستربح أنت أيضا				
١٣	أخسر أنا من أجل أن تربح أنت				
١٤	تشعر بملل أثناء الدراسة في القسم				
١٥	إذا شتمني تلميذ فسأرد عليه بالمثل لأنه يستحق ذلك				
١٦	يعجبني إقامة صداقات جديدة				
١٧	أشعر بالراحة وأنا أشوش على القسم حين أشعر بالملل				
١٨	أفضل المدرسة على المنزل لوجود الأصدقاء				
١٩	أقـول كل شيء للأسـتاذ أو الإدارة حـين يرتكـب تلميـذ خطـأ أخلاقيـا				
٢٠	أحافظ على أثاث المدرسة لأنه وضع لخدمتي				
	المجـــــــــــمـــــــــــوع				

قم بجمع الأرقام في كل خانة
اختر خمسة من المعطيات السابقة حسب الأهمية ورتبها:

وكانت النتائج كالآتي:

	دائما	أحيانا	قليلا	أبدا
الأولى علوم تجريبية أ	٣١،٢٧ ٪	٢٨،٠٢ ٪	٢٤،١٣ ٪	١٦،١٨ ٪
الأولى علوم اقتصادية	٣٩،٢٣ ٪	٢١،٧٥ ٪	١٩،٩٢ ٪	١٩،١٢ ٪
الأولى علوم رياضية أ	٢١،٥ ٪	٢٧،٩٣ ٪	٢٦،١٦ ٪	٢٤،٤١ ٪
الجذع المشترك العلمي أ	٢١،٥٤ ٪	٢٦،٠٧ ٪	٢٢،٦٧ ٪	٢٩،٧٢ ٪
الجذع المشترك العلمي ب	٢٤،٠٤ ٪	٢٧،٢٥ ٪	١٩،٦٣ ٪	٢٩،٠٥ ٪
الجذع المشترك العلمي ح	١٧،٩٨ ٪	٣٢،٦٤ ٪	٣٢،٠٢ ٪	١٧،٣٦ ٪
الجذع المشترك العلمي د	٣٤،٧٣ ٪	٢٣،٢٩ ٪	٢٧،١٢ ٪	١٤،٨٦ ٪

تعليق:

على الرغم من محدودية العينة وضيق مجالها، إذ إنها شملت عينة خاصة من المتعلمين ينتمون إلى الطبقة متوسطة أو غنية اجتماعياً من قطاع التعليم الخاص بالمغرب؛ فهي تمدنا ببعض المؤشرات التي تظهر رغبة المتعلم في تحقيق النصر الذاتي والنصر العام في آن معا، وكلما تقدم التلميذ في السن إلا وزاد تشبثه بالآخر. بالإضافة إلى ذلك، فما لاحظناه انطلاقا من الاختيارات هو:

- ميل الإناث إلى الجانب التضامني أكثر من الذكور.

- احتل البند رقم ٥ المرتبة الأولى لدى أغلب تلاميذ السنة الأولى علوم يليه البند ٦ ثم ١٨ فـ ٤ ثم ١٣

- لم تبتعد اختيارات الجذوع المشتركة التي تركزت حول: ٢ يليه ٣ ثم ٥ فـ: ١٦ و١٢

المنفعة للجميع والتربية على القيم

ما صدرنا به هذه الدراسة من كون المغاربة شعب مزدوج الشخصية في أغلبه، تظهر بعض سماته منذ التعلم المدرسي. التلاميذ يفكرون رابح رابح نظريا وقد يُخلون بها عمليا، وقد لاحظنا ذلك بمواقف متعددة، وقد قمنا بملاحظات صفية على ذلك، سنوضحها في حلقة لاحقة من هذه الحلقات.

ولعل القيم التي يتربى عليها التلميذ في هذه المرحلة هي نتاج تعلمات سابقة ذات أصل ديني من قبيل نصوص شرعية، يحفظها التلاميذ عن ظهر قلب، نذكر من بينها قوله تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..» (المائدة ٢). وقول الرسول الكريم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه البخاري ومسلم).

نعتقد أن طرائقنا واختياراتنا المنهجية هي المسؤولة عن هذا التناقض الذي يظهر من خلال حالات اللاتضامن التي تحدث في المدرسة والمجتمع؛ فنحن نلقن المعرفة ولا نسعى لبنائها عمليا، نركز على النص وننسى الواقع، الحفظ قبل الفهم عامة في المواد ذات الحمولة الإنسانية، رغم ما يظهر من تحديد شكلي في كتبنا المدرسية.

لعل الحل الناجع لمعاناتنا التعليمية يكمن في إرادة حقيقية، تعتمد المستجدات التقنية والعلمية عالميا، والاستجابة لنبض الشارع والانطلاق منه دون تبخيس لدور المتعلم أولا وأخيرا، من أجل بناء الشخصية المتوازنة الفاعلة.

علوم القرآن في الإبستيميّة المعاصرة

مقاربة تفكيكيّة نقديّة



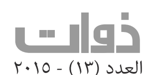


بقلم : محمد بوشيخي
باحث مغربي في الشأن الديني



درس المفكر القطري، الدكتور جاسم سلطان، في عدد من كتاباته شروط النهضة وعوامل الإخفاق الحضاري في العالم الإسلامي، وتناولها كموضوع إشكالي من خلال أبعادها المعرفية وروابطها السوسيولوجية والثقافية، كما حاول قراءة شفرتها، وفرز تشابكاتها في سبيل اقتراح دليل معرفي وعلمي لمجابهة التحديات القائمة والمحتملة.

جاسم سلطان يسائل مسار النهضة في العالم الإسلامي





وَيُعْتَبرُ كتابه «من الصحوة إلى اليقظة: استراتيجية الإدراك للحراك»، الصادر عام ٢٠٠٧ عن مؤسسة أم القرى، والذي نقدم حوله العرض التالي، لبنة أساسية في تقييمه لمسار النهضة، وتصوره لمشروع إنجاحها.

يعد هذا الكتاب لبنة أساسية في تقييم مسار النهضة، وتقديم تصور لمشروع إنجاحها

وقد حدد موضوع الكتاب، في تقديمه، بكونه يتناول «الفلسفة الكبرى للنهضة» المنشودة، ويعتني «بتحديد المستلزمات الأساسية للانتقال من طور الارتجال والاندفاع وضبابية الرؤية إلى الرشد ووضح الرؤية»؛ فالنهضة كمشروع مستقبلي يلقى تبريره في حال الأمة المتهاوي أمام تصاعد القوة الغربية، حيث أدى تراجع الدور الحضاري للأمة الإسلامية إلى زحف النموذج الغربي على مجالها الخاص، وهو ما انتهى بإسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

وقد أدى هذا الوضع، بحسب المفكر القطري، إلى هزة كبيرة في العالم الإسلامي نتيجة لثلاثة أمور، تتمثل أولاً في «انكشاف حالة التخلف في العالم الإسلامي»، وثانياً سقوطه «تحت أيدي حركة الهيمنة والاستكبار» الذي يسميه «الاستعمار»، ثم ثالثاً «تمزيق العالم الإسلامي إلى وحدات صغيرة لا يجمعها جامع». وقد تولد عن هذه الحالة - حسب تحليله - ثلاثة عناوين كبرى، شغلت العالم الإسلامي تمثلت في «عنوان النهضة والتقدم» في مقابل التخلف، و«عنوان التحرير» في مقابل الاستعمار، و«عنوان الوحدة» في مقابل التمزيق.

يربط جاسم سلطان، في كتابه، قضية النهضة بنوع التلقي والفهم للمفاهيم المشكلة للبنية الثقافية في المجتمع

في تصحيح المفاهيم

ويربط جاسم سلطان، في كتابه، قضية النهضة بنوع التلقي والفهم للمفاهيم المشكلة للبنية الثقافية في المجتمع، ويتناول في هذا السياق، مفهوم الإيمان بأفق أشمل وأعمق مما يروج له؛ فالإيمان بحسبه حرر قلوب الناس وعقولهم «لينطلقوا ويركزوا على استعمار الأرض وخلافتها، وإعمار هذا الكون المسخر لهم»، وانتقد الفهم السائد الذي جعل «الكثيرين محبوسين داخل دائرة قضايا القوى الغيبية كالجان والشياطين وغيرها، أو داخل دائرة قضايا الإيمان»، فيثيرون بذلك «قضايا الفرق والنحل وشبهاتهم وافتراءاتهم»، وهم بذلك «يعودون إلى السجن أو القيد الذي حررهم الإيمان منه». وفي المقابل، نجدهم «يركزون ويجتهدون، حيث تكفي المعلومة البسيطة، ويضيعون ويهملون، حيث يجب التركيز والإتقان والإبداع».

كما حدد مفهومه للعمل الصالح الذي لا يقصره فقط على «العمل التعبدي والخيري»، بل يعتبره شاملاً لكل «عمل ينهض بالأمة»، وأثناء فحصه لطبيعة الحضور الديني في ذهنية المسلم، انتقد الدكتور سلطان سوء الفهم الناجم عن مقولة «حسبنا كتاب الله وسنة رسول الله (ص)»، وهو قول، رغم صحته، يثير التباساً لدى البعض ممن يعتقدون بإمكانية الاستغناء عن ذوي التخصص العلمي «بالرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة»، معتبراً هذا «ظلم كبير للدين وللإسلام»؛ قبل أن يقدم قاعدة عامة في تفسير ذلك القول، وهي أن العلم علمان «علم في الكتاب، وعلم أشار إليه الكتاب». فإذا كان كتاب الله عز وجل قد «فصل في العبادات، وفي ما هو من شأن الدين المحض»، فإنه في المقابل عندما تعامل مع الخبرة الإنسانية، قال: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»، في إشارة إلى حتمية التواصل مع ذوي الاختصاص من خارج العلم الشرعي.

كما استعرض، مؤسس مشروع النهضة، عبر صفحات الكتاب تعريفات مدققة لعدد من المفاهيم والمصطلحات الشائعة الاستعمال في الخطابات النهضوية، كتلك التي تتضمنها كلمات: «المشروع» و«النهضة» و«التنمية» و«الحضارة» و«الأيديولوجيا»



و«البراديغم»... وفي تفحصه لمظاهر الانتقال في سلم التحضر، اعتبر حركة النهضة حصيلة سلسلة من العمليات «تبدأ من طور الصحوة واليقظة، وتتجلى في شكل نهضة التي تولد بعدها أشكال العمران أو الحالة الحضارية في تجلياتها المادية».

وعرّف الصحوة؛ أي المرحلة الأولى، بصفتها «تياراً عاطفياً ضخماً» يؤمن «بالإسلام ومبادئه، ولكنه قليل الخبرة، ضحل المعرفة» كما أنه «يتعجل قطف الثمار ولا يحسن فن ترقب الفرص»، وبسبب هذه العجلة، يقول الكاتب: «دفعت الأمة وطلائعها الشابة الدم والدمع والعرض في مقابل القليل من النتائج»، أما اليقظة، المرحلة الثانية، فـ«تنقشع فيها بقايا الخمار العقلي، ويعرف فيها المرء مكانه ووضعه بالنسبة إلى ما يحيط به من أشياء وبشر، فتتضح الرؤية، ويكيف حركته ليسير بين عالم الموجودات المادية حوله، وينظم علاقته بعالم البشر المحيط به»، في حين أن المرحلة الثالثة، مرحلة النهضة، تعرف اندفاع الإنسان وتحرره من «قيود الخوف ليمارس دوره في جميع المجالات»، وهي مرحلة يعم فيها «نور البحث والنظر وتولد الإبداعات التي تؤسس لنشوء عالم الأشياء الذي يزود الحق بالقوة فيسيران معاً». وفي المرحلة الأخيرة، تأتي مرحلة الحضارة، «وهي حالة من بناء النموذج المنشود في عالم الواقع» متمثلاً في نموذج متقدم على صعيد الفكر والسلوك كما على صعيد الإنتاج الصناعي والمعماري والفني.

مسيرة تجربة: تقدم وإخفاق

وفي تقييمه للتجربة التاريخية المعاصرة على مستوى مرحلتها الأولى، مرحلة الصحوة، يرى سلطان أنها «قد استوفت أهدافها»، وأن الحاجة ملحة الآن «إلى الانتقال إلى مرحلة اليقظة، لاستثمار هذه الطاقات المباركة وفق رؤية استراتيجية، لتندفع الجهود كلها في مسار النهضة». وهنا يوجه وصاياه بضرورة التوافق والتشارك مع مختلف فرقاء الساحة، من خلال العمل على إيجاد «مشاريع عمل مشتركة بين كل تيارات الأمة - الراغبة في النهضة - لتؤدي إلى النتيجة الحتمية في نهضة مجتمعاتنا»، دون «إقصاء أي مجهود نافع يصب في نهضة الأمة»، لأن «المشروع لا يستغني عن النخب المؤثرة والقيادات الرشيدة الفاضلة من كل التيارات والأحزاب والجماعات، وكل المخلصين من الحكام والمحكومين، بالإضافة إلى الدعاة والأفراد المستقلين».

> يرى الكاتب أن العودة إلى الكتاب والسنة مطلب حقيقي، وأول خطوة في هذه العودة يجب أن تبدأ بتغيير عالم الأفكار

غير أنه يسجل ملاحظة «نقدية» خلال هذه المرحلة، تمثلت في رهان تيار الصحوة الإسلامية لعقود طويلة على الكم الجماهيري، في مقابل «الكم النوعي الذي يحسم الرهان في نهاية المطاف»؛ فالكاتب يشدد على ضرورة تأمين أدوات وشروط الانتقاء من أجل تكوين النخبة القيادية، لذلك «يجب النظر لوسائل التحول الاجتماعي كلها، وتدريسها، وبيان إيجابياتها وسلبياتها، وتحت أي شروط تفعل، وتحت أي شروط يصبح ضررها كبيراً، وبالتالي تتكون العقلية العلمية التي نحتاجها في الصفوة المختارة داخل حركة النهضة الإسلامية».

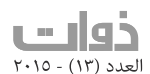


كما حرص، في نفس السياق، على ضرورة امتلاك العاملين لنهضة الأمة، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، لأدوات القادة التي منها: أدوات العلوم الشرعية والإنسانية ثم العلوم الإدارية. ويؤكد من جهة أخرى، على ضرورة تضافر مستويين للفكر، في المشروع النهضوي، المستوى الأول هو مستوى المادة الخام للنصوص المرجعية، سواء كانت هذه النصوص مقدسة أو تراثية، وهو ما يسميه بمستوى «النصوص المرجعية والتراث الثقافي». أما المستوى الثاني، فهو ما «يطرحه العقل من مدخلات وتصورات تواكب ثقافة العصر وعلومه»؛ أي ما يسميه بمستوى «ثقافة العصر وقناعاته».

وشدد الكاتب القطري على ضرورة الالتفات إلى التراث من أجل فحصه ودرسه، واعتباره مرجعاً للعمل النهضوي المتوخي، واستشهد هنا بالمفكر السوري نور الدين حاطوم في دراسته ل«تاريخ النهضة الأوربية»، الذي قال عن حركة الإحياء عند الغربيين أنها «لم تبدأ بالنظر للمستقبل، إنما بدأت بتنقية التراث، اليوناني والروماني على حساب المسيحية، وبدأوا يستلهمون منه فكرة المنطق، وفكرة البحث العلمي، والأفكار الأخرى التي رأوها نافعة، ثم أعادوا هذا النافع بإحيائه، وبدأوا في النظر للمستقبل»، فحركة النهضة الغربية، في نظرتها للماضي والاهتمام بالبحث فيه، لم تكن رجعية، بل كانت إيجابية «تستلهم من الماضي أحسن ما فيه، وتؤسس عليه المستقبل المنشود».

من هنا يرى الدكتور سلطان، في تناوله للتجربة الإسلامية من خلال قراءته لنظيرتها الغربية، أن «العودة إلى الكتاب والسنة مطلب حقيقي»، وأول خطوة في هذه العودة يجب أن تبدأ بتغيير عالم الأفكار، «الذي يتمثل في نظرة الإنسان للإله والكون والغيب والعالم المحيط به، وأيضا تغيير أنماط التفكير التي تعيق أية حركة نهضوية حضارية من أسلوب التفكير المعوق»؛ إذ يتعلق الأمر بمرحلة ضرورية لتخليص الغيورين على نهضة هذه الأمة من «الأفكار والمقولات القاتلة للإبداع والإنتاج»، حتى تنطلق في طريق الإبداع من أجل تحقيق «نهضة الأمة التي ترنو إليها وتشتاق لها جماهير الأمة».

ودائماً في تقييمه للتجربة الإسلامية الراهنة، ورصد ثغراتها ومعوقاتها واقتراح الحلول بشأنها، يتحدث عن اليأس، كحالة سيكولوجية معيقة للنهوض تتمظهر في حالات «الخلاص الفردي والانسحاب من ساحة الفعل الإسلامي، أو ما يطلق عليه التصوف السلبي، على أساس أن التصوف السني الصحيح كان قمة في العمل والعطاء»؛ ويعتبر اليأس «سجناً معنوياً وعقلياً كبيراً للشعوب والمجتمعات»، ويقترح هدم «جدرانه الأربعة» لتحرير العقول والقلوب منه، عبر توظيف أربعة معاول، هي معول «علم الاجتماع»، ومعول «علم التاريخ»، ومعول «المنطق»، وأخيراً معول «المبشرات»؛ أي ما «بشرنا به ربنا جل وعلاه، ونبينا (ص) من آيات وأحاديث تبشر هذه الأمة بالغلبة والنصر والتمكين». فتمكن قادة وطلاب النهضة من استعمال هذه المعاول الأربعة في هدم جدران اليأس هي «الخطوة الأولى نحو الخروج من هذا الواقع».





المعجزة في المتخيل الإسلامي



يَسعى كتاب «المعجزة في المتخيل الإسلامي» للباحث التونسي باسم مكي، إلى مراجعة قضية المعجزة في المتخيل الإسلامي والبحث في وظائفها ودلالاتها، بعيداً عن الكشف عن صدق هذه الأخبار أو كذبها، لأن هذه الأخبار تعكس تمثل المسلم للعالم، وتكشف عن آلامه ورغباته، ومن تم، فإن المعجزة قبل أن تكون حدثا خارقا، فهي فعل لغوي في المقام الأول.

ويقدم هذا الكتاب الصادر منذ ٢٠١٣ ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» عن «المركز الثقافي العربي» في الدار البيضاء وبيروت، مختلف تمثلات المسلم للمعجزة قصد تبين وظائفها ودلالاتها، ولهذا الغرض تم تقسيم الكتاب إلى مقدمة وأربعة أبواب، حيث تضمنت المقدمة ثلاثة محاور حول المعجزة، والمتخيل، والمدونة، واهتم الباب الأول بمعجزة الخلق والولادة، وخصص الثاني لدراسة معجزات النجاة والعقاب، وسعى الباحث في الباب الثالث إلى تبين معجزات التسخير والقدرة، لينتهي في الباب الرابع إلى دراسة معجزات الموت والرفع.

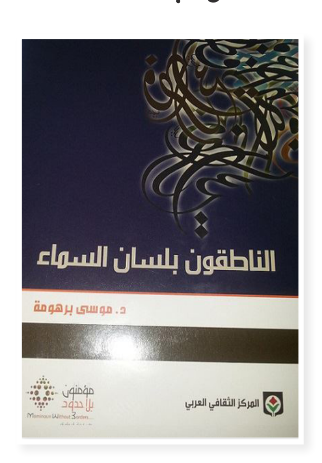
وقد جاء في هذا الكتاب، أن «مبحث المتخيل الديني لا يزال حقلا بحثيا خصبا لا يمكن الإتيان فيه بالقول الفصل، لتعقد الظاهرة الدينية ولتداخلها في مجالات معرفية مختلفة. وإذا كانت الدراسة الغربية قد أولته كبير أهمية تنظيراً وتطبيقاً، فإن الدراسة العربية - رغم وجود بعض العمال الأكاديمية الجريئة - مازالت مقصرة في دراسة هذه الظاهرة. لذلك، بقيت الأرضية المعرفية لهذا المبحث غير واضحة،

يمكن للقارئ أن يتعرف على تفاصيل أوفى عن كل هذه الإصدارات وغيرها من إصدارات المؤسسة، بالإضافة إلى التعرف على مراكز البيع والمكتبات التي تبيع جميع إصدارات المؤسسة عبر ربوع الوطن العربي عبر الولوج لموقع مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» الخاص بالكتب على الرابط الرسمي التالي:
book.mominoun.com

والمفاهيم غامضة، فظلت قطاعات رمزية شتى تحتاج إلى المراجعة النقدية والمعرفية الشاملة.

ويشير مكي في هذا الكتاب، وهو في الأصل بحث نال به الباحث شهادة الدكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقص التونسية عام ٢٠٠٨، إلى أنه لما كانت الحداثة في أبسط تعريفها مراجعة دائمة للفكر وآلياته، فإنه قد سعى في هذا الكتاب إلى مراجعة قضية المعجزة في المتخيل الإسلامي، معتبراً أن مقاربة نصوص المعجزات قد خضعت، إما للمقاربة الإيمانية المؤكدة للمعجزة، باعتبارها حدثا تاريخيا حصل بمشيئة الله، وإما للمقاربة العقلانية الوضعية النافية لكل خرق لنواميس الكون، فظل كلا الطرحين رهيني سؤال الحقيقة.

الناطقون بلسان السماء



يُعَدُّ كتاب «الناطقون بلسان السماء» للكاتب الأردني موسى برهومة، أول دراسة عربية شاملة، تنتقد جهود المفكر المصري نصر حامد أبو زيد، وتركز على مجموع دراسته الفكرية ومقالاته وحواراته، وذلك باعتباره واحداً من المفكرين العرب والمسلمين الذين انخرطوا في حقل قراءة التراث الديني قراءة نقدية معاصرة، وكونه ينتسب إلى فضاء التأويل النقدي، حيث خاض معارك ومواجهات قاسية مع الذين يزعمون النطق بلسان السماء.

ويسعى هذا الكتاب، الصادر ضمن منشورات «مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، عن «المركز الثقافي العربي» ببيروت والدارالبيضاء، كما جاء في مقدمته، إلى «دحض أطروحة أولئك الذين يزعمون النطق بلسان السماء، واحتكار اليقين الديني. كما ترمي إلى تقويض تصوراتهم، وبيان تهافتها من خلال تطبيقات منهج التأويل على النصوص الدينية، وبيان مدى قدرة هذا المنهج على الكشف عن المعاني المضمرة داخل النصوص، واقتراح تصورات جديدة ومعاصرة للفهم الديني، تختلف عن التصورات القديمة، التي قدمت تفسيراً حرفياً للخطاب الإلهي، وحصرت معانيه في إطار ضيق ومحدود ومنفعي».

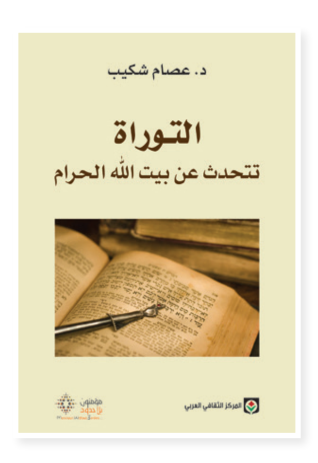
ويتوزع الكتاب على أربعة فصول، يقوم الأول منها بتوضيح مرجعيات التأويل ومصادره في التراث العربي الإسلامي، بدءاً من تحديد الأصول اللغوية، والاصطلاحية، والبلاغية لمفهوم التأويل، ثم إظهار أوجه التشابه والاختلاف، بين التأويل والتفسير، وما اعترى هذه الوجوه من تحولات في المفاهيم، مع التركيز على ما أتى به المفكر نصر حامد أبو زيد.

ويهتم الفصل الثاني، بمرجعيات التأويل الحديثة والمعاصرة، ويسلط الضوء على الجذور الفلسفية الغربية، والجذور الدينية لنظرية التأويل أو الهرمنيوطيقا، والصراع على تأويل النصوص الدينية في الديانتين اليهودية والمسيحية، الذي أدى إلى بروز حركة الإصلاح الديني بالغرب، مع التركيز على قدر مهم من التأويلات التي أتى بها أبو زيد، التي تتقاطع مع التيار العقلاني الإسلامي الذي دشنه محمد عبده، وعمّقه طه حسين، ومن بعده أمين الخولي، الذي توصل، من خلال منهجه الأدبي في التفسير، على الكشف عن مستويات من الدلالة تجعل من القرآن صالحاً لكل زمان ومكان.

أما الفصل الثالث، الذي يعد مركزياً في هذا الكتب، فيقوم فيه الباحث موسى برهومة بتفكيك الأطروحة العامة في مشروع أبو زيد التأويلي، ووجه له مجموعة من الانتقادات، خاصة للمنزع الحاد والمتطرف الذي صاغ من خلاله أطروحته الفكرية، وغياب المنهج لديه، أو تحوله، وهو ما عزاه أبو زيد لتغير الموضوعات والمشكلات والقضايا.

وفي الفصل الرابع والأخير، يضع الباحث أطروحة أبو زيد في سياق جهود التجديد التأويلي الإسلامي المعاصر، ويقارنها مع أطروحات دعاة إنشاء تأويل إسلامي جديد، كما يرصد ظاهرة التزمت في العالم الإسلامي، وعلى رأسها الأصولية.

التوراة تتحدث عن بيت الله الحرام



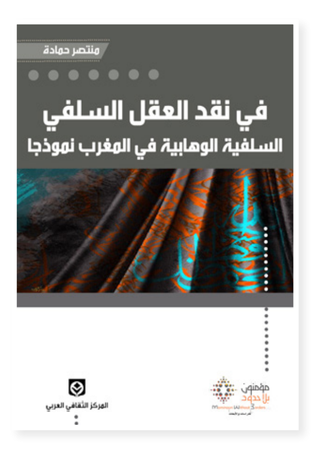
يُعالِجُ كتاب «التوراة تتحدث عن بيت الله الحرام» للباحث المغربي المتخصص في مقارنة الأديان، عصام شكيب، إشكالية كبيرة وأساسية ما تزال مطروحة إلى اليوم، وهي دراسة الأماكن المقدسة الواردة في القرآن في التوراة وأسفار الأنبياء، ويقدم رؤية جديدة تتناول الموضوع نفسه، لا تنكر التوراة ولا تعتبرها كتابا للأساطير والخرافات، بل كتابا مقدسا يضم حقائق كثيرة تم تغييرها وإخفاؤها.

ويقدم هذا الكتاب، الصادر عام ٢٠١٣ ضمن منشورات «مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، عن «المركز الثقافي العربي» ببيروت والدار البيضاء، طرحا بديلا للطرح الإسرائيلي، و»خريطة جديدة للأماكن المقدسة التوراتية بشكل أخص، وهي خريطة بيت الله الحرام في شبه الجزيرة العربية، والتي تنسجم مع اللغة، وسياق النصوص التوراتية، وما تقدمه هذه النصوص من صفات للمكان ومجاله الجغرافي والثقافي، وتنسجم كذلك مع الأديان الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والواقع المعاش إلى هذا اليوم».

وإضافة إلى هذا، فإن الباحث عصام شكيب يتطرق في مؤلفه هذا الموزع على ثمانية فصول، إلى المفاهيم المغلوطة عن الأماكن المقدسة في خريطة فلسطين المعاصرة، ويوضح هذه المغالطة عن طريق التناقض بين التفسيرات التوراتية والنظريات البروتستانتية لهذه الأماكن، وما أتت به الدراسات الأركيولوجية، كما حاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، مثل: أين توجد الأماكن المقدسة، مثل بيت إيل، بيت ميخا، مصفاة، مورة، صخرة رمون، بئر شبع، مدن الملجأ، جبعة،

جبعون، جبع، جلجال، جلعيد، جلعود، عاي، أفراته، عفرة؟ وأين كل تلك الطقوس والعبادات المرتبطة بها حسب النص التوراتي الذي أكد غير مرة أنها ستسامر من سنة إلى سنة ومن جيل إلى جيل شريعة أبدية؟ وما معنى تلك الحروب والمعارك التي ترتبط بها في كثير من النصوص التوراتية؟

في نقد الخطاب السلفي



«في نقد الخطاب السلفي: السلفية الوهابية في المغرب نموذجاً»، هو عنوان الكتاب الجديد للباحث المغربي منتصر حمادة، الذي يعالج فيه أحد مواضيع الساعة والأكثر تعقيدا في العالم الإسلامي، من خلال نموذج وحيد ألا وهو المغرب.

وفي تقديمه لهذا الكتاب، الصادر حديثا ضمن منشورات مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» عن «المركز الثقافي العربي» في الدار البيضاء وبيروت، يرى المؤلف أن أسباب الاشتغال على الموضوع، مرتبطة بـ «هيمنة أنماط هذا التديّن ليس في الدول الإسلامية «المُصَدّرة» له منذ عقود وحسب، وتحديدا منذ حقبة الطفرة النفطية في شبه الجزيرة العربية، ولكن أيضاً بحكم صعود أسهم هذا النمط المُتشدد من التديّن في مجالات تداولية إسلامية كانت إلى عقود قريبة، بعيدة عن النهل من رياح التسلّف الوهابي، قبل أن تجد نفسها اليوم، معنية بالتفاعل مع نتائج سياسات «تصدير» و«استيراد» الأدبيات السلفية الوهابية عبر الفضائيات والمؤتمرات وثورة الاتصالات والتقنيات التكنولوجية الحديثة».

ويضيف حمادة، أنه ارتأى الاشتغال على نموذج تطبيقي يتعلق بـ«المجال التداولي الإسلامي المغربي» لكي لا يتيه «في كثرة التفاصيل والسياقات، عندما نتطرق إلى طبائع التديّن في باقي الدول العربية والإسلامية، ونحسبُ أن التحولات التي تطال طبائع التديّن في الساحة المغربية، تنطبق بشكل أو بآخر على تحولات تطال أنماط تديّن في العديد من الدول الإسلامية، وحتى في أوساط الأقليات الإسلامية، وخاصة في القارة الأوروبية».

ويتضمن الكتاب تقديماً، وأربعة فصول: التديّن المغربي وصدمة السلفية الوهابية، والخطاب السلفي ومقتضى النقد الثقافي، ووقفات نقدية مع المراجعات السلفية، والخطاب السلفي وتحولات «الربيع العربي».

وفي الفصل الأول من هذا الكتاب، يورد حمادة أن «قلة قليلة من الباحثين العرب والمسلمين، أقرت بأن إحدى أهم خلاصات صدمة اعتداءات نيويورك وواشنطن، تكمن في فتح أعين العقل الإسلامي على طبيعة علاقته التمفصلية مع «السلفية الوهابية» تحديداً، ولذلك، وبالرغم من مرور ما يقارب عقد ونيف على منعطف هذه الاعتداءات، لا زالت هذه الأقلام تطالب بحتمية الحسم في طبيعة علاقة العقل الإسلامي بهذا التيار دون سواه، وليس مصادفة أن تنتفض العديد من الأقلام الأسيوية التي تتحدر من باكستان وأفغانستان، ضد «السلفية الوهابية»، ونذكر منها على وجه الخصوص، الناشط الباكستاني طارق علي، مؤلف كتاب «صدام الأصوليات» والباحث الباكستاني أحمد رشيد، المختص في الشأن الأفغاني، مؤلف كتاب «طالبان.. جند الله الأفغان والحرب الجديدة في هندوكوش»، و«السقوط في الفوضى.. أفغانستان وباكستان وعودة الطالبان».

عدد الجياع في العالم، يتراجع إلى ٧٩٥ مليون نسمة

كشف أحدث تقرير لمنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (فاو)، أن عدد الجياع الكلي في العالم انخفض فعلياً إلى ٧٩٥ مليون نسمة؛ أي أقل مما كان عليه خلال الفترة (١٩٩٠-١٩٩٢) بمقدار ٢١٦ مليون شخص، أو نحو شخص واحد من كل تسعة أفراد، ولكن مع ذلك ما زال هناك ملايين من الناس عبر العالم لا يجدون طعاماً كافياً للتمتع بحياة صحية نشطة.

وأفاد التقرير الذي أطلقه سواسيةً كل من منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (فاو)، والصندوق الدولي للتنمية الزراعية (إيفاد)، وبرنامج الأغذية العالمي (WFP)، حول «حالة انعدام الأمن الغذائي في العالم، ٢٠١٥»، أن انتشار نقص الأغذية تراجع في أقاليم العالم النامية- أي نسبة الأشخاص الذين لا يستطيعون استهلاك ما يكفيهم من الغذاء، لامتلاك مستوى مقبول من النشاط والصحة - إلى ١٢،٩ في المئة من مجموع السكان، بعد أن كان المعدل ٢٣،٣ في المئة منذ ربع قرن.

ورصد التقرير نجاح معظم البلدان - ٧٢ من أصل ١٢٩ بلداً - في بلوغ هدف الألفية الإنمائية، المتمثل في خفض معدل انتشار نقص التغذية بحلول عام ٢٠١٥، بينما لم تبلغ أقاليم العالم النامية ككل الهدف نفسه المنشود بهامش ضئيل فحسب. وإضافة إلى هذا، نجح ٢٩ بلداً في تحقيق الهدف الأكثر طموحاً الذي طرحه مؤتمر القمة العالمي للأغذية عام ١٩٩٦، حين التزمت الحكومات بتقليص

العدد المطلق لناقصي الغذاء إلى النصف بحلول عام ٢٠١٥.

تحديات حالت دون تحقيق الأمن الغذائي

في غضون السنوات الأخيرة، أعاق مسيرة التقدم صوب بلوغ كامل أهداف الأمن الغذائي بحلول ٢٠١٥، جملةُ تحديات تمثلت في الأحوال العالمية السائدة، والظروف الاقتصادية والسياسية الدولية. وجاءت الظواهر الجوية المتطرفة والكوارث الطبيعية، فضلاً عن عدم الاستقرار السياسي والنزاعات والحروب الأهلية بمثابة معوقات لا يمكن تخطيها. واليوم، ثمة ٢٤ بلداً إفريقياً يواجه أزمات غذائية؛ أي ما يعادل ضعف عددها عام ١٩٩٠؛ علماً بأن واحداً من كل خمسة أفراد في العالم ممَن يعانون سوء التغذية، يقطنون مناطق منكوبة يغلب عليها ضَعف الحكومة والتعرُّض الشديد لتهديدات الهلاك والمرض.

ويشير تقرير الأمم المتحدة حول الجوع العالمي إلى أن الأزمات تطورت على مدى الثلاثين عاماً المنصرمة، بعد أن كانت كوارث قصيرة الأجل وأحداث جليّة الأعراض والنتائج، لكي تتحوّل اليوم إلى أزمات ممتدة؛ ويُعزى ذلك أساساً إلى جملة عوامل، لا سيما الكوارث الطبيعية والنزاعات، بينما شكلت ظواهر تغير المناخ والأزمات المالية وارتفاع الأسعار ضمن أسباب أخرى، عوامل مُفاقمة لهذه الأوضاع في كثير من الأحيان.

والملاحظ، أن معدلات الجوع لدى البلدان ذات الأزمات الممتدة المتكررة، هي أعلى بمقدار ثلاث مرات مقارنة بغيرها. وفي العام ٢٠١٢، بلغت أعداد من يعيشون في ظل هذه الحالة نحو ٣٦٦ مليون شخص - منهم ١٢٩ مليوناً يعانون من قصور التغذية؛ أي في ما يشكل ١٩ في المئة من مجموع ضحايا انعدام الأمن الغذائي على وجه الكوكب.

وفي مواجهة هذه التحديات، تزايد عدد سكان العالم طبقاً لتقرير الجوع العالمي بمقدار ١٫٩ مليار نسمة منذ عام ١٩٩٠، مما يجعل خفض عدد الجياع على النحو المشاهد الآن إنجازاً أشد إثارة للدهشة.

خارطة الجوع عبر العالم

أورد تقرير الأمم المتحدة المختص بالجوع، أن شرق آسيا شهد تقدماً بالغ السرعة في تقليص معدلات الجوع - وبالمثل أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي وجنوب شرق آسيا ووسطها، وكذلك بعض أجزاء إفريقيا - مما دلل على أن النمو الاقتصادي الشامل لمختلف الفئات الاجتماعية والاستثمارات الزراعية والحماية الاجتماعية، جنباً إلى جنب مع الاستقرار السياسي، إنما تجعل من دحر الجوع هدفاً في المتناول. وقبل أي اعتبار آخر، فإن الإرادة السياسية الملتزمة بأن يصبح التغلب على الجوع هدفاً إنمائياً أسمى، تُعدّ أقوى محرك إلى الأمام.

ومع أن إفريقيا جنوب الصحراء، تظل أعلى أقاليم العالم من حيث معدلات انتشار نقص التغذية - ٢٣٫٢ في المئة أو واحد تقريباً من بين كل أربعة أشخاص- إلا أن البلدان الإفريقية التي رصدت استثمارات أكبر حجماً من أجل تحسين إنتاجيتها الزراعية وبنيتها التحتية الأساسية، تمكنت في الوقت ذاته من بلوغ هدف القضاء على الجوع ضمن الأهداف الإنمائية للألفية، وخصوصاً في غرب القارة.

ومنذ عام ١٩٩٠، انخفضت نسبة الجوعى في أمريكا اللاتينية ومنطقة بحر الكاريبي من ١٤٫٧ في المئة إلى ٥٫٥ في المئة، في حين أن نسبة الأطفال ممن ينقص وزنهم (دون ٥ سنوات من العمر) تراجعت على نحو حاد. وتُرجِم الالتزام القوي للحد من الجوع إلى برامج شاملة للحماية الاجتماعية، فيما قاد بالاقتران مع النمو الاقتصادي القوي إلى إحراز تقدم على مستوى القارة بأسرها.

وحققت البلدان في شرق آسيا وجنوبي شرق آسيا انخفاضاً مطرداً وسريعاً لمؤشرات سوء التغذية، كاتجاه مدعوم بالاستثمار في مرافق المياه والصرف الصحي والآفاق الاقتصادية المواتية. وفي جنوب آسيا، بينما سُجل انخفاض متواضع في معدل انتشار نقص التغذية، إلى ١٥٫٧ في المئة من ٢٣٫٩ في المئة، إلا أن إحراز المزيد من التقدم في تقليص أعداد الأطفال ناقصي الوزن فاق هذا المعدل.

وبالنسبة إلى شمال إفريقيا، يكاد انعدام الأمن الغذائي الحاد أن يصبح ظاهرة مندثرة مع تراجع انتشار نقص التغذية إلى نسبة لا تتجاوز ٥ في المئة، غير أن مشكلة نوعية التغذية باتت مصدراً باعثاً على القلق في المقابل، مع ارتفاع معدلات انتشار البدانة والسمنة على صعيد المنطقة بأسرها.

وفي غرب آسيا، حيث تسود أحوال من النظافة الصحية، وتنخفض اعتيادياً معدلات نقص الوزن بين الأطفال، ارتفع معدل الجوع بسبب الحروب والصراعات الأهلية، ما نجم عنه مشكلات تدفق المهاجرين واللاجئين بأعداد كبيرة لدى بلدان شبه الإقليم.

ترقبوا

في العدد القادم

«المعرفة الدينية وسؤال القيم»

